بديعة أمين

النافذة ...

(١)

منذ ان انتقلنا الى المبنى الجديد بدات الاحظ اعراضا غريبة تسترعي الانتباه في سلوك زميلي . لقد قضينا اكثر من خمس سنوات في غرفة واحدة . كان دوما يتسم بالهدوء والرزانة والتعقل الذي كثيرا ما كان يتراءى لي بانه لا يتناسب وعمره الزمني . كان من النوع الصامت من الرجال . وفي اوقات فراغه كان يحاول ان يقضي ذلك الوقت الفائض بين غلافي كتاب .. ونادرا ما كان يأتي الى المكتب دون ان تضم حقيبته كتابا ما . كان يحب القراءة حبا يبدو غير طبيعي . ويحب ايضا غرفتنا الواسعة الوضيئة التي تدخلها الشمس صيفا وشتاء بلا تحفظ . وربما كان حبه لها اكراما للنافذة الكبيرة التي تلتهم اكثر من ثلث مساحة الجدار المقابل له . الشيء الوحيد الذي كان ينغص حياته في الغرفة هو الضوضاء المتدفقة من الشارع .. ابواق السيارات التي لا تتوقف والتي تزعق بسبب وبلا سبب .. فرقعة العربات اليدوية .. اصوات الناس المختلطة وصراخ الباعة الذين يعتقدون ان حناجرهم افضل نافذة عرض لابراز فضائل بضائعهم المكدسة على العربات على الرصيف المقابل لمكتبنا. وبرغم كرهه الشديد للضوضاء والاصوات المتنافرة ، فانه كثيرا ما كان يطيل المكوث امام النافذة الكبيرة الرحبة .

كان الى جانب مودته الصميمية للكتب التي يعتبرها عنصرا اساسيا من عناصر الشخصية ، وحبه المرضي للهدوء ، مولعا بشكل ينسيه حساب الزمن بمراقبة الناس .. تصرفاتهم .. طريقة كلامهم .. حركاتهم الخصوصية الدقيقة التي تصدر دون وعي منهم ، والتي يعتبرها دليلا لا يخطيء لتحليل الشخصية . كان يراقب المارة عبر النافذة بحضور يقظ ومتوتر . واذا ما راقه مشهد ما ، فانه لا يتوانى عن ان يمكث ساعات طويلة يراقب بعينين يضيق ما بين جفونهما كي يستطيع ان يركز على اكبر قدر من الخيوط الضوئية غير المرئية التي تنتقل عبرها الصور البشرية لتستقر في ذهنه . ولم يكن يعتبر ذلك باي حال وقتا ضائعا . وبرغم جديته التي تبعث شعورا بالارهاق لدى الاخرين ، وحرصه الشديد على الواجب ، وشعوره العالي بالمسؤولية ، فانه كثيرا ما كان ينسى عمله وكتبه ساعات طوالا وهو يقف مأخوذا عند النافذة ، يلتهم بعينين صقريتين حركات وايماءات بائع ملابس عتيقة، مثلا ، يثير انتباهه او يقنعه بانه يمكن ان يكون شخصية متميزة في مشروع ادبي كان يحلم به ويخطط له منذ زمن بعيد . ولم يكن يهمه كثيرا ان يتلقى تنبيها او اكثر من مدير الادارة لنسيانه واجباته الوظيفية ، برغم ان المدير كان يدرك تماما ان هناك دوافع انسانية اصيلة تقف وراء ولع زميلي غير الاعتيادي بالنافذة . اما سبب هذا التناقض الظاهري بين سلوكه الجدي المضجر وحرصه على العمل وشغفه الشديد بالقراءة ، وبين ولعه غير العادي بالوقوف عند النافذة، فهو انه كان يعد نفسه ليكون اديبا .. كاتب رواية او ، قصة قصيرة، على الاقل . وكان يعتقد اعتقادا لا يمكن زعزعته بان نصف الاديب يتكون اساسا من مراقبة الناس .. حركاتهم .. تصرفاتهم .. تعابير وجوههم وايماءاتهم ، بالرغم من ان الادب المعاصر قليلا ما يهتم بهذه الخصوصيات الفردية . وبالرغم من انه كان يدرك تماما ان عملية اعداد نفسه ليكون اديبا بالاسلوب الذي اقتنع به هو ، لا بد ان يدخل في تركيبها ، جزء كبير من الضوضاء والضجيج اللذين يرافقان حياة الناس اعتياديا ، وبالرغم من انه لا يستطيع ان يقوم بعملية المراقبة من برج زجاجي كاتم للصوت ، الا انه مع ذلك كان يشعر بالقرف حتى الغثيان من الاصوات العالية المتداخلة . وبرغم حبه الصادق لغرفتنا لانها تحتل موقعا يعتبره مثاليا بالنسبة لتنمية ملكاته الادبية ، الا انه كان يكن لها في سره بغضا مكتوما بسبب الضوضاء النفاذة التي تستطيع ان تخترق الجدران بلا استئذان ، ولو انه في الواقع كان يستطيع لحد ما التحكم بحجم الضجيج المتدفق ، وذلك باغلاق النافذة باحكام . وكثيرا ما كانت تنفلت منه امنية خفية ... « لو ينتقل مكتبنا الى مكان اخر اكثر هدوءا .. ولكن .. غرفتنا ونافذتها الرائعة »

في احد الايام جاءني والفرح يكاد ينزلق من عينيه :

ـ أتعلمين .. سننتقل من هنا . يقال ان المبنى الجديد يقع في منطقة هادئة .. وهذا يعني ، الى جانب سعادة الهدوء ، ارتفاعا في ميزانيتي الشهرية .

خلت انه سيترفع مع انتقالنا الى المبنى الجديد ..

ـ كلا .. سأقلص مشترياتي من الغاليوم والاسبرين .

ومنذ ان اتخذ قرار تخلية المبنى الحالي ، وفي صباح كل يوم ، وقبل ان يأتي الى غرفتنا ، كان لا بد ان يمر بغرفة مدير الادارة ليساله متى سيتم الانتقال . وكان اول شيء يفعله ، بعد أن يحييني ، هو نقل اخر انباء الانتقال الى المبنى الجديد .

مرة جاء المكتب وقد اكتست وجهه حالة فرح انفعالية شديدة لم اشهدها بمثل هذا الوضوح من قبل ، تنطلق من عينيه .. فمه .. اذنيه .. من كل منفذ يصل بواطن عالمه الداخلي المغلق ابدا ، بالعالم الخارجي ، دون ان يستطيع السيطرة عليها ، لقد اخبره مدير الادارة ان هناك سوقا شعبية مكتظة بالناس والباعة ، وساحة واسعة، يقعان مباشرة خلف المبنى الجديد . ولم يكن بمقدوره ان يكتم رغبة صادقة :

ـ كم اتمنى ان تكون غرفتنا الجديدة في الجانب الخلفي من المبنى .. اظن ان القدر بدأ يدخل حياتي .. انني استطيع ان اعتبر نفسي اكثر من نصف اديب لو حصلنا على غرفة في الجانب الخلفي من المبنى .. فهناك الهدوء .. وهناك السوق الشعبية !!

ومنذ ان سمع ذلك النبأ ، بدا يحس احساسا حقيقيا ومتزايدا بان القدر بدأ يدخل بنشاط وبصورة جدية في عملية صنع اديب جديد . ولم يكن ينسى في أيما يوم من الايام ، وهو يتحدث مع مدير الادارة ، ان يعرب عن رغبته في ان تكون غرفتنا في الجانب الخلفي من العمارة . وقد استطاع فعلا ان ينتزع وعدا بذلك ، وصفه المدير بانه

وعد حقيقي ! ها هو ذا يقطع نصف الطريق في عملية خلق اديب! ولكي يحث مسيرة القدر ، ويرفع وتيرة نشاطه الى درجة اعلى من السرعة، فانه لم يكتف بما يمكن وصفه بانه موقف سلبي عند النافذة ، او رصد تحركات الناس ، ومتابعة عملية التهام الكتب بجرعات مستمرة ومنتظمة ، وانما قرر ان يتخذ موقفا اكثر ايجابية ، استعدادا لما سيكشف عنه مستقبل عملية الخلق الفريدة المنتظرة . واخذ كلما التقطت عيناه عبر النافذة الكبيرة حدثا غريبا ، او لقطة متفردة، يعود بهدوء الى منضدته ليسجلها في دفتر انيق اشتراه مؤخرا لهذا الغرض. وقبل ان ننتقل الى المبنى الجديد ، صارت لديه قائمة طويلة من مخططات مشاريع ادبية متعددة : بائع الملابس العتيقة الذي اصبح تاجر افكار .. البائع الذي تحولت حنجرته الى نافذة عرض صارخة الالوان .. الغرفة الجديدة ومسارب العبقرية من السوق الشعبية ... الى اخر سلسلة مشاريع قصص قصيرة تحمل على العموم عناوين طويلة تجاوبا مع المودة الشائعة لدى كتاب اميريكا اللاتينية . غدا .. سيقرا الناس لاديب جديد ! وربما كان يعد في سره ايضا ، او في الصفحات الاخيرة من الدفتر الانيق ، صيغة الخطبة التقليدية التي يلقيها الحائزون على جائزة نوبل في الاداب .

اخيرا .. انتقلنا . ويبدو ان وعد مدير الادارة كان ، على غير ما هو معتاد بالنسبة للمدراء ، صادقا حقا . فقد كانت غرفتنا الجديدة في الجانب الخلفي . انني لم ار الغرفة من قبل .. وهو كذلك . وفي اليوم الاول من دوامنا في المبنى الجديد ، ذهبت متاخرة . حين فتحت باب المكتب ، فوجئت بمشهد جنائزي في الغرفة . تطلع الي زميلي الذي كان يجلس في مقعده بهدوء واسى من يحضر مجلس فاتحة يقام لصديق عزيز فقد في حادث مؤلم . كان الحزن يسح من عينيه برغم انه كان من الصنف الذي لا يسمح لمشاعره ان تغادر جلده ، وتفصح عن نفسها . بادرني بعد ان حييته قائلا :

ـ الم اقل لك ان القدر بدا يدخل حياتي ؟!

وابتسم ابتسامة بخيلة ثم انزوى في صمت مغلق ..

كانت بضع اوراق تنتشر على منضدته على غير انتظام .. لم اجد ما اقوله .. لم يدع لي الوجوم الجنائزي الذي كان يتنفس في الغرفة، ان انظر بتفحص في غرفتنا الجديدة . او ان اتذكر حكايته مع الادب وطريقة صناعة الادباء . خلت انه فقد انسانا عزيزا .. بقيت لحظات انتظر بترقب ، دون ان يستطيع صمتي ان يخرجه من صمته . كان التوقع الخائف يشد على قلبي .. كنت اتمنى ان يقول شيئا ـ اي شيء .. وفي الوقت نفسه كنت اتمنى ان لا يقول اي شيء .

وخلال الايام اللاحقة كان كل اهتمامي وتركيزي قد انصب عليه دون ان اعي ذلك .. وحتى حين اكون مع اخرين في غير غرفتنا ، كنت اجد صعوبة كبيرة في ان امتلك حضوري حيث انا في تلك اللحظات .. وكثيرا ما كنت اكتشف فجاة ، وانا في مواجهة سؤال من زميل اخر ، ينتظر مني جوابا ، ان ذهني كان يسوح بعيدا عني وهو يحاول عبثا حل الغاز الوضع الجديد في غرفتنا الجديدة . ونسيت تماما السوق الشعبيه . كان انغماري به كليا الى مدى ان ضجيج السوق الذي كان يتدفق مثل سيل طائش في المبنى كله ، والذي اثار نقمة شبه عامة ضد زميلي ، فشل في ان يجلب اهتمامي .

كان الاحباط واضحا حتى على تصرفاته اليومية التي اعتدنها منتظمة طيلة سنوات خمس .. كان يطلب شايا ويتركه ساعات دون ان يتذكر ان الشاي يطلب عادة ليشرب .. وحين يعود البواب بعد ساعة او ساعتين لاخذ القدح الذي كان يفترض انه قد اصبح فارغا ، فانه يتراجع فورا بعد ان يفتح الباب ويكتشف ان الشاي قد صب في القدح ليبقى ! يمد يده الى مجموعة من الاوراق .. يضعها امامه كما لو كان يتهيا لكتابة شيء ما .. يمسك القلم .. يهرش مقدمة راسه باطراف يسراه كمن يحاول ان يحرض ذهنه .. يدع راس القلم يلامس الصفحة التي تعلو بقية الصفحات .. ثم يدع القلم ينهار من يده ، دون قرار مسبق كما يبدو . الدفتر الانيق المغلف بجلد الغزال الذي اشتراه ليكون سجلا لمخططات مشاريعه الادبية ، اختفى في احد الادراج الحديدية ، ولم اره بعد ذلك برغم انني كثيرا ما كنت اتوق لرؤيته . كان احيانا ينهض من مقعده .. يدور حول منضدته ببطء .. يقترب من منضدتي .. ياخذ كتابا من على سطحها .. يفرد اوراقه بسرعة وآلية مذهولة تسمع خلالها ارتطامات اوراق الكتاب مثلما يفعل مقامر عريق باوراق اللعب قبل توزيعها .. ثم يعيد الكتاب الى المنضدة ملقيا به في اي موضع كيفما اتفق ، دون ان يفكر بالقاء نظرة فيه .. كان غائبا دوما .. كل شيء في سلوكه الجديد كان يوحي بانه ربما انتقل فعلا الى درجة اعلى من درجات السلم الادبي ، وان ملاقيق دماغه كانت مسرحا تزخم مدوائر فوار ، وهو في ذروه نشاطه الخلاق ، مما انساه تصرفاته السابقه التي كانت تتسم دوما بهدوء رصين وحضور عال ، ودبع به الى نوع من الذهول الذهني الذي يقال انه يقترن عادة بتصرفات الادباء والفنانين ، ويعتبر من ابرز اعراض العبقرية .. غير اني لم استطع ، مع ذلك ، التخلص من هواجسي الخفية القلقه .

استمر هذا الوضع عدة ايام .. بدات احس انني اخذت ادخل مرحلة انكماش ذاتي .. ماذا حدث له ؟ كان مرحا بكل الناس .. بكل نماذجه الادبية الموعودة .. بالحياة كلها .. كان ينظر انتقالنا الى المبنى الجديد برعبه عاشق .. ولم تكن هناك حدود لتفاؤله الذي كان دوما في حالة تصعيد مستمرة تدعو الى الضحك .. فماذا حدث ؟ هل بدر مني ما اساءه .. هل هو مريض .. هل فقد انسانا عزيزا او شيئا ثمينا .. هل كان يمر بتجربه عاطفيه يائسة أنسته انه قد قطع اكثر من نصف الطريق ليكون اديبا ، كما انسته القدر ؟ بدات احس انني يجب ان احرره من حضوري .. صرت اترك الغرفة فترات طويله .. ولا اعود اليها الا حينما اكون مضطرة .

مرة عدت لغرفتنا لانجاز مهمة كلفت بها . فتحت الباب . كان كعادته الجديدة ، يجلس في كرسيه باكتئاب قط اليف اصيب بزكام ولكنه لا يعرف ما الذي كان يجري في رأسه وانفه ، ولماذا كان يحس باوجاع غريبة كل الغرابة في مفاصله وسلسلته الفقرية .. ولماذا كان العالم يبدو مشوشا كما لو كان ينظر اليه من وراء غشاء دمعي ؟! لم احاول ان انتقد الى عالمي .. سنوات ابدية كانت تفصل فيما بيننا . اما السنوات الخمس التي قضيناها معا وبمودة صادقة ، فقد ردمت في يوم واحد .. كان بعيدا .. بعيدا جدا . شعور مبهم باثم غامض كان ينبت في داخلي ويزداد نموا كل يوم .. فيما كان هناك شيء ما، برغم ذلك البعد ، يعبث في ذهني .. لا بد ان اعرف ماذا حدث . كان يؤلمني اشد الالم ان افقد صديقا قبل ان يموت . كنت اتصور دوما ان صداقاتي جزء من كياني الروحي والفكري .. فهي اختياراتي انا ، وهي الشيء الوحيد الذي لا يستطيع احد ان يستلبه مني. والغريب انه هو ايضا كان يشاركني في تصوراتي هذه التي يعوزها شيء كثير من واقعية الحياة .. وما زلت اتذكر عبارة قالها يوما جعلتني اتصور انه كان رومانتيكيا متطرفا : « يخيل لي احيانا ان موت صديق حي اشد ايلاما وحزنا من موت حقيقي لصديق ! » ترى .. هل انا في رأيه الان ميتة ام حية .. هل يؤلمه حضوري الان اكثر من موتي الحقيقي .. ام .. ان كلانا قد اصبح ميتا ؟!

برغم الفتور الذي كان يسري كتيار كهربائي متواصل من الزاوية التي تحتلها منضدة زميلي فينشر في جو غرفتنا برودا تعجز حتى حرارة تموز عن تخفيف وطأته ، قررت ان احطم الجليد .. اما المهمة التي جئت من اجلها فقد استقرت بتواضع منسي في زاوية من رأسي بعيدة عن مجال تفكيري . بقيت صامتة بضع لحظات ، اذ ينبغي قبل ذلك ان انتشل تفكيري منه . ولكن .. كيف ابدا ؟ البداية هي دوما الشيء الصعب .. اي شيء يا ترى يصلح ان يكون بداية فيها نسبة ولو ضئيلة من النجاح ؟ ايمكن ان يكون محيطنا الجديد ذلك المعول الذي يستطيع ان يزيح الطبقات الفوقية من الجليد ؟ يا الهي .. ما الذي

جنيته حتى ابتليتني بالادباء او من يظن الادب صناعة تدخل في صنف الحرف الحرة ويمكن انتاجها عبر قضبان نافذة !!

حاولت ان اسوح بعيني في ارجاء غرفتنا لعلي اجد مفتاحا مناسبا لفتح باب الخجل . انسلت عيناي ، وانا ادور في تاملاتي وتساؤلاتي ، من منضدتي التي كنت اظاهر بالتطلع فيها ـ وان كنت واثقة انه لم يكن يهمهم بوجودي ـ الى الجدار الابيض العاري لغرفتنا .. ومن زاويتي عيني نظرت اليه خلسه دون ان ادير راسي بانجاهه .. ثم .. وبطبيعة مفتعلة ، ادرت راسي ببطء غير ملحوظ كما لو كانت تلك الحركة صادرة دون تصميم مني .. ظللت اسوح بعيني .. توقفتا عنده لحظة كما لو كان محطة استراحة . ثم تابعتا رحلتهما المشوبة بقلق مهم . وكان من الطبيعي ان تنتقلا اول ما تنتقلان الى الشيء الذي اتخذ له اقرب موقع من زميلي . وفجاة .. توقفت حركة راسي البطيئة مرة واحدة دون افتعال ، وخمدت عيناي في محجريهما ! انتزعتني الصدمة بضع لحظات من بين طبقات الجليد .. كان هناك ، تحت نافذة صغيرة عالية ، انتبهت اليها لاول مرة ، كرسي صغير مجدول من الخيزران ، وقد استقرت فوقه بلاابالية منسية منضدة خيزرانية صغيرة .. استقرت عيناي غير مصدقتين عند الخيزران بضع لحظات .. بدات الثلوج تتساقط في اعماقي من جديد .. شعرت بخوف تشد اصابعه بقوة على قلبي .. فيما شق صليل قشعريرة مسرعة عظام ظهري . اهي اوانه ؟ ارتجفت .. عدت بعيني الى منضدتي المهجورة .. لبثت عندها لحظات ثم هجرتها من جديد .. دفعني خوفي اليه ثانية وانا ابحث عن الهدوء الرصين والعقل المبكر .. استقرت عيناي على زميلي الذي كان ينقر بتفكير عميق على منضدته وقد ضاق ما بين حاجبيه ، كمن يحاول حل لغز عصي انساه العالم كله .. وعلى غير ارادتي ، عدت الى صمتي المرهق .. وعاد هو بهدوء الى مركز تفكيري. بدا لي انني كنت استطيع البقاء في صمت ابدي دون ان افلح بالتفكير في اي شيء اخر ، قبل ان انجح في ان احول دون ان اتحول الى « الانسان الثلجي » الذي يحتفي به الصغار في البلدان الباردة في اعياد السنة الجديدة . وبرغم البرد الذي كان يصل في عظامي .. والخوف .. قررت مرة اخرى ان ادق الباب . استجمعت كل شجاعتي .. لملمت حواشيها .. وجمعتها في سؤال جاهز الصنع .. ولم انس ان احاول ان اضع على وجهي ما تصورته ابتسامة اصطناعية مخففة . حاولت ان اخرج صوتي ، ولكنه ظل حبيس شفتين مغلقتين باصرار عجيب ، كما لو كانتا امام مبرد طبيب اسنان . فكرت .. كيف ابعد شبح طبيب الاسنان ومبرده المؤلم .. تذكرت كهلا متقاعدا .. وتذكرت طريقته في تحطيم جدران الصمت .. تنحنحت مثلما كان يفعل حين يريد التحدث في امر تافه يتصوره في غاية الخطورة .. حاولت ان ابل شفتي اليابستين بلساني .. ولكنه كان جافا .. ابتلعت كرة هوائية موهومة تدحرجت من خلل اوتاري الصوتية .. ونجحت طريقة الكهول المتقاعدين في حل عقدة شفتي :

ـ هلا قلت لي ما بك ؟ هل حدث شيء ؟

بدات زاوية منفرجة تتشكل ببطء ما بين ذقنه واسفل رقبته .. نظر الي نظرة تراكمت في اعماقها اللانهائية كتل من جليد كانون اسكندينافي ، شعرت معها ان عضلة قلبي قد توقفت عن استلام دفقات الدم القادمة من الوريد . ماساة اغريقية بكاملها كانت تطل من عينيه متحدية كل السنين التي مرت ، منذ ان كتب سوفوكليس عن ذلك الكائن الخرافي الذي يحمل راس امراة وصدرها على جسد اسد مجنح ـ ابي الهول ـ الذي كان يربض عند باب طيبة فينزل الكوارث واحدة اثر اخرى بالمدينة التي عجزت عن حل الغازه المميتة !

اخيرا تكلم باقتضاب مهيب وقد بدا لي ان تعبيرا خلته ابتسامة او ما يقرب من ابتسامة منسحقة ، ارتسم في موضع غير طبيعي .. في جبهته !

ـ الم اقل لك ان القدر بدأ يدخل حياتي ؟
وانزوى في صمته المأساوي من جديد ..

مرت ايام دون ان اجرؤ على مواصلة مغامرة ولوج عالمه الجديد او حل طلاسم قدره .. خيل لي انني لم اعد قادرة على البقاء في هذا الجو السوداوي . قررت ان اطلب الانتقال الى غرفة اخرى .. غير اني فكرت ، تحت ضغط السنوات الخمس ، ان اطلعه على رغبتي كي لا يساء فهم دافعي .. تطلع الي بعيني ذلك القط الاليف الذي اصيب بزكام ولكنه لم يكن يعرف ما الذي كان يجري في راسه وانفه ، ولم كان العالم يبدو مشوشا ، كمن ينظر اليه من وراء غشاء دمعي .. وبهدوئه المعتاد .. مد يده في درج حديدي واخرج منه مجموعة من اوراق وضعت فوق بعضها البعض .. دون عناية .. وببطء .. نهض من مقعده .. خطا باتجاه منضدتي .. مدها لي .. وغادر الغرفة دون ان يقول شيئا .

كانت الصفحة الاولى تحمل هذه الكلمات :

مشروع قصة

العنوان : مشروع اديب في غرفة مغلقة تشبه زنزانة .

البطل : لا يوجد .

الشخوص : زميلتي وانا .

ملاحظة : قد لا يصح حتى ان تسمى قصة ، وانما تظل جزءا من متاهات فكرية لحالة نفسية مرضية ، قد تكون طارئة وقد تكون مستديمة .

(٢)

منذ ان بدات اتخطى اعتاب سني الشباب ، بدات احس ان صداقات عجيبة وعميقة اخذت تنمو يوما بعد يوم بيني وبين اناس لم تتح لي الحياة فرصة اللقاء بهم . كتبهم التي كنت اقراها بشغف متزايد كانت وسيطا بيننا . كان اهتمامي واعجابي بهم يجعلني ، يوما بعد اخر ، ازيد اقتناعا بان اناسا كهؤلاء لا يمكن ان يكونوا قد فارقوا الحياة . وقد بلغت رغبتي في ابقائهم احياء ، درجة كانت تجعلني اتصور احيانا بان سير حياتهم ، ربما كانت مخطئة فيما يتعلق بمسالة كونهم امواتا . اما لماذا لم تسنح لي الفرصة لان التقي بهم ، فرغبتي تلك ايضا ، كانت تصور لي المسالة على انهم يعيشون في بلدان بعيدة ، لا استطيع الذهاب اليها لاسباب متعددة . ولكني لا اظن ان يوما سياتي يجعل بمقدوري ان اذهب الى حيث يقيمون ، لالتقي بهم اخيرا . ومنذ ان نمت تلك الصداقات الحميمة بيني وبينهم ، كانت كتبهم التي كتبت مسودات بعضها قبل مئات من السنين ، تحتل كل جزء من غرفتي الخاصة في البيت .. على الكراسي .. على المناضد .. في النوافذ .. على رفوف مكتبتي وحتى على سريري عند طرفي وسادتي . ولم يكن شيئا غير اعتيادي ، ان تصطدم قدماي ، وانا اغوص في نوم عميق ، بكتاب وجد له موضعا دافئا تحت غطائي . ولا ادري متى بالضبط ، بدات احس احساسا غريبا ومهيمنا بصورة تدريجية ، بانني ربما كنت اسير في نفس الطريق التي قطعوها .. وحتى انه كان يحلو لي احيانا ان اتخيل ان كتبي ومؤلفاتي التي لم تولد بعد ، ستملأ غرف اصدقاء يعيشون في بلدان بعيدة .. ولكنهم لا يستطيعون المجيء الى بلادي ليلتقوا بي لتقس اسبابي !

كان كل حدث امر به او عمل يومي انجزه ، حتى التافه منه ، يشكل لبنة في مخططاتي الاولية لاعمالي الادبية المقبلة . لو رايت كناسا يلف راسه « بيشماغ » متهريء ليتقي برد الشتاء ، وينحني على مكنسته المصنوعة من سعف النخيل بذراعها الطويلة ، لانتقلت فورا الى راسي ماساته البيتية .. كوخ متهدم .. او غرفة في بيت طيني ، تضم امراة قلصها الجوع الى مومياء مصرية معاصرة بلا لفائف طبية وتابوت ذهبي .. مع ستة اطفال او سبعة تطل من عيونهم اعراض جوع مزمن موروث .. بساط ممزق ينام عليه الجميع .. برد يتسرب الى العظام مع كل قطرة مطر تخر من شقوق سقف لا يدري احد كيف

استطاع ان يقام حتى الان ، دعوة ابدية وطبيعية جدا للانهيار .. وان مرت بطريقي فتاة جميلة ، قمت معها فورا برحلة رائعة تظللها شجيرات زيتون اسباني ، أو سرت معها في رحاب غابة الاعمدة السحرية في مسجد قرطبة .. ولا يعيدني من رحلة الطيب والند مع فتاتي الجميلة من فراديس « الهمبرا » العربية ولياليها الاندلسية ، غير بوق سيارة يحاول انقاذ حياتي من موت محقق ! هكذا كانت حياتي حين لا يكون بين يدي كتاب ، أو عمل ينبغي ان ينجز .

كان كل شيء في حياتي يبدو وكأنه قد صنع بصورة مقصودة لانضم في يوم سيأتي الى الذين يملكون اصدقاء ومعجبين في كل مكان وفي كل زمان . حتى المكتب ، حيث قضيت حتى الان خمس سنوات، هيأ لي ، لا ادري ، ابطريق الصدفة أم يتدخل من القدر ، غرفة دخلت معها في علاقة تصل حد العشق . وكثيرا ما كان يتولاني ، عند انتهاء الدوام يوم الخميس من كل اسبوع ، شعور من يشرع بالسفر الى المنفى ! كانت غرفتنا تقدم لي كل لحظة كل ما يمكن ان يجعل مني الاديب الذي كنت احلم به ليل نهار .. لقد جعلتني غرفة مكتبي لا احب الناس فقط .. اتسلل داخل جلودهم دون استئذان ودون ان اشعرهم بذلك ، فاحس بما يحسون وانا قابع بصبر وراء نافذتي الحبيبة ، وانما جعلتني ايضا احب حتى الحجارة الملقاة بلا فضول على رصيف مقابل ، تشمخ في جانب منه شجرة متوحدة .. وطالما صنعت من تلك الاحجار مواكب الالهة وملوك من سومر وبابل تتقبل القرابين والنذور من تلك الشجرة المتوحدة . بايجاز ، اصبحت من خلال أصدقائي الذين لم ارهم ولن اراهم اطلاقا ، كما يخيل لي ، ومن خلال غرفة مكتبنا ونافذتها ، احب الحياة بكل ما فيها .. بخيرها وشرها .. بحسنها ورديئها . قد يوحي قولي هذا انني ، بسبب من هوسي الادبي ، اصبت بنوع من بلادة حسية افقدتني القدرة على التمييز بين الخير والشر . ولكن المسالة ليست كذلك اطلاقا . وانما هي انني توصلت الى نظرية جديدة في فلسفة الحياة ، تتناقض في منتصف الطريق مع المانوية . ونظريتي الجديدة لا تنظر الى العالم على انه خير مطلق وشر مطلق . وانما تنظر الى الخير على انه خير . اما الشر، فانه خير في حالة الصيرورة !

شيء واحد كان يستثني نفسه من نظريتي الجديدة ليظل سيئا الى الابد . الضوضاء والضجيج . كنت اكرههما لحد الموت او الجنون .. ولك ان تختار ما شئت بين الاثنين .. اما بالنسبة لي ، فالامر سيان ، ولا فرق كبير بين الموت والجنون بقدر ما يتعلق الامر بهذه المسالة . كانت ، السواة الابدية الوحيدة ، التي تحيل حياتي احيانا الى جحيم لا استطيع تحمله حتى في غرفتنا الرحيبة ، التي احببتها حبا يصلح ان يكون موضوعا طريفا لقصة شيقة . وكثيرا ما كانت تسيطر على افكار تقرب من السوداوية تجعلني اتصور انني لن اصبح اديبا على الاطلاق بسبب الضجيج والاصوات المنفرة التي تشكل كورسا كثير الشبه بكورس الاذاعة والتلفزيون الذي يرافق المغنين ، والذي يتدفق في غرفتنا مخترقا كل الحواجز وهو ينطلق من الرصيف المقابل لمكتبنا .

وبرغم حبي الاصيل لغرفة مكتبنا وشمسها الوضيئة ، ونافذتها التي تنتقل عبرها صور فريدة يمكن ان تشكل مقاطع كاملة في اعمالي الادبية المقبلة ، كنت اتمنى في سري احيانا ، وعلى غير رغبة مني ، ان ينتقل المكتب الى مكان اخر ، اكثر هدوءا ، لاتخلص من زعيق كورس التلفزيون الذي يبث برامجه صباحا ومساء ، دون انقطاع ، من الرصيف المقابل . وكنت اعلل نفسي بان مدينتي زاخرة في كل زواياها واحيائها بنماذج بشرية وقصص عفوية تتخذ لها من الشوارع والازقة والساحات العامة والاسواق ، مسارح لها دونما احراج كبير ، ودون حاجة لمؤلف او مخرج ومصمم ديكور ، او مهندس صوت واضاءة ، ومؤثرات صوتية .. كنت امني نفسي ايضا بان اي مبنى حديث يصمم ليكون مكاتب او دوائر رسمية ، لا بد ان يأخذ بعين الاعتبار المواصفات المعمارية الصحيحة ، بما في ذلك النوافذ ومقاساتها ومواقعها بالنسبة لمطلع الشمس وغيابها ، ومما يجعل من تلك الابنية ، مكاتب حقيقية يعمل فيها بشر حقيقيون ، او على الاقل ، يشعرون انهم ينتمون الى الجنس البشري ، لا مخازن اثاث زائد عن الحاجة ، او قرطاسية وما اشبه . كان همي الوحيد ، التخلص من ضوضاء الشارع . لقد نبت في ذهني شعور أمتد له في راسي ألف جذر ، كجذور شجرة عاشت الف عام ، أن ضوضاء هذا الشارع هي السبب الحقيقي الوحيد الذي حال حتى الآن ، دون أن انتقل من مرتبة الأدباء الذين يفكرون ويتخيلون ويتحسسون ، الى مرتبة الادباء الذين يحولون افكارهم واخيلتهم واحاسيسهم الى حبر يتشكل في حروف تحمل معاني تنتقل بمودة وهدوء الى عيون الاخرين وعقولهم .

لقد حاولت منذ فترة غير قصيرة ان اقنع مدير الادارة بفكرة الانتقال الى مبنى اخر .. ولكن محاولاتي كلها كان مصيرها الفشل .. حاولت ان اقنع بعض الزملاء بالفكرة ، ليمارسوا هم بدورهم بعض الضغط على مدير الادارة ، غير انهم كما يبدو ، كانوا على علاقة ودية جدا بالمبنى ! فهو بالمناسبة قريب من مؤسسات ودوائر اخرى ـ وتستطيع نوافذ مكتبنا العديدة ، ان تعيد الزملاء ، بمنتهى البساطة ودونما حاجة الى جهود ساحر او قيام معجزة ، الى عهود الشباب الاول ، واحيانا سني المراهقة ، حيث انها تجعل بمقدورهم التطلع الى عشرات الموظفات اللاتي يأتين الى ، او يغادرون مكاتبهن ، عند بدء الدوام وانتهائه . كانت تلك من اصعب المشاكل التي جابهتها في محاولاتي الاقناعية التي كنت اكاد اكون واثقا ان فشلها سيجمدني عند مرحلة مشروع اديب . غير انني لم ادع الياس يأخذ قيادي بيده . ان الاديب الذي سيكون لا يمكن ان يظل سجين المطهر الى الابد .. فاما ان يسقط في الجحيم او ان يصعد الى الفردوس . عدت لمحاولاتي لاقناع مدير الادارة .. وكانت حجتي مشروعة ومعقولة . فالمكتب الحالي لم يعد كافيا لاستيعاب كوادرنا التي كانت تنمو باستمرار كما تنمو القصب في الاهوار الجنوبية .

لو كان يوم عيد وانا في عهد طفولتي ، لما جاءني بفرحة كتلك التي احتوتني حين وجد مدير الادارة ان اقتراحي كان يمتلك هذه المرة ، مبررات منطقية ومقنعة . لم افرح تشفيا بالزملاء الذين كانوا وما زالوا ، يعارضون الفكرة اشد المعارضة . ولكن فقط لانني بدأت احس احساسا غريبا بان القدر بدا ، الان فقط ، يدخل في حياتي الادبية بشكل جدي وحازم . وبرغم رفضي المطلق لكل الغيبيات ، اخذ ذلك الاحساس يبدو لي وكأنه حقيقة مادية ، حين سمعت ان المبنى الجديد يقع في منطقة هادئة .. وازداد ذلك الاحساس تبلورا ليدخل مجاله المادي الجديد حين علمت ان هناك سوقا شعبية تقع عند الجانب الخلفي من المبنى ! لقد اكتملت الان كل الشروط اللازمة لصنع اديبنا المقبل .. الشيء المهم الان هو ان احصل على غرفة تقع في الجانب الخلفي من المبنى الذي يطل على مسرح نشاطاتي الادبية المقبلة ـ فمن هذه التربة الخصبة ، سيكون بمقدوري ان اغترف بلا حدود ، ما اشاء من نماذج بشرية وصور واحداث قد تضيق بها مؤلفاتي القادمة .. وبالفعل فقد بذلت جهودا مضنية مع مدير الادارة من اجل ان تكون غرفتي في الجانب الخلفي من المبنى .. وكانت المشكلة الكبرى فيما يخص هذا ، هي ان جميع الموظفين تقريبا كانوا يتقاطرون كل لحظة على غرفته محاولين اقناعه في الحصول على غرف تقع في الجانب الخلفي من العمارة ـ ليس حبا بالسوق طبعا ، وانما هربا من ضجيج الشارع العام الذي تطل عليه الواجهة الامامية من المبنى . وبرغم الاقبال الشديد على الجانب الاخر من العمارة ، فقد وعدني المدير بان غرفتي ستكون في هذا الجانب ، تقديرا منه للادب والادباء .

كنت اعد الايام يوما يوما .. ومع مرور كل يوم كنت احس انني كنت اقترب اربعا وعشرين ساعة جديدة من مواقع القدر .. سادخل التاريخ من ابواب .. الادب !

واخيرا .. انتقلنا الى المبنى الجديد .. وبطبيعة الحال فانني لم ار غرفتنا الجديدة الا في اليوم الاول لدوامنا في المكتب الجديد . ولحظة فتحت باب الغرفة واجتزت عتبتها ، شيء مثل ومضة سيف انسل في رأسي آتيا من عالم منسي بعيد .. فيما احسست ان قبضة من حديد اخذت تشد بقوة متصاعدة على رقبتي ، خلت معها ان عيني قد خرجتا من محجريهما .. ارتفعت يدي بصورة لا ارادية لتبعد تلك اليد الحديدية عن رقبتي .. ولكنها لم تستطع ان تفعل شيئا اكثر من ان تفك عقدة رباطي قليلا وترخي ياقة قميصي .. ومع ومضة السيف انبعثت من مدافن بعيدة الغور منسية في اعماقي اللاواعية حادثة لم تستطع ، كما يبدو لي الان ، ان تعيش داخلي غير فترة قصيرة بعد وقوعها برغم الآلام والقروح التي خلفتها وراءها .

كان والدي يقضي اغلب اوقاته خارج المدينة .. كان عمله يضطره الى السفر باستمرار متنقلا من مدينة لاخرى .. ونادرا ما كنا نجتمع معا نحن الثلاثة .. امي وابي وانا . كان يعود الينا مرة كل شهر او شهرين ليقضي معنا يوما او اثنين .. يحمل بعدهما حقيبة سفره من جديد .. وفي احد الايام .. عاد فجأة وعلى غير انتظار .. اخذت امي تتطلع اليه باستغراب .. فقد كانت عودته سريعة هذه المرة .. بعد اسبوع واحد فقط من سفره .. وقبل ان يخلص من حقيبة سفره، كما اعتاد ان يفعل حينما كان يعود سابقا بالقائها على مقعد خشبي صغير عند مدخل البيت .. اتجه فورا وبسرعة غير اعتيادية الى غرفته . تبعته والدتي .. وبقيت انا خارج الغرفة منزويا في مقعد اكبر حجما مني بكثير .. وعلى خلاف احاسيس الفرح التي كان يمنحني اياها ذلك المقعد الرحيب ، حيث كان يوفر لي مجالا كبيرا للحركة ـ جلست عليه ذلك اليوم الذي عاد فيه ابي بصورة غير متوقعة ، بصمت مثل ارنب مذعور .. كنت احس بخوف مرتعش مبهم يظللني مثل خيمة نصبت في صحراء بعيدة لا ينبت فيها زرع ، تسوح فيها بغير اكتراث كثبان من الرمل .

كان الزمن طويلا .. طويلا جدا قبل ان يفتح باب الغرفة ليطل منه رأس امي .. توقع وجل كان يبطن صوتها حين نادتني .. سرى الخوف الخفي الي ايضا .. مشيت ببطء نحو الغرفة .. ولم اكد اجتاز العتبة ، حتى بادرني ابي بصوت لم اتذكر انني سمعت مثله من قبل .. كان مزيجا مستبدا محتقنا راعدا وطاغيا في وقت واحد :

ـ هل انت فعلت هذا ؟

ومد بيده القوية المحمرة مجموعة من الاوراق تحت عيني .. شعرت ان شيئا ما اخذ ينسحب داخل رأسي نازلا الى رقبتي الهزيلة عبر وجهي .. ملأني رعب غريب .. فانا حقا كنت الذي فعل ذلك .. لم اكن اعرف ما هي تلك الاوراق . كانت بالنسبة لي مجرد رموز صغيرة انتفضت من قلم حبر على ورق ابيض .. وبضع كلمات لم استطع قراءتها بخطه الرديء وبمعلوماتي الضئيلة جدا في مجاهل الالفباء العربية التي لم اكن قد تعلمت منها انذاك غير بضعة حروف .. جئت بعلبة الوان مائية .. جلست على كرسيه الكبير .. ورحت ارسم على تلك الاوراق ، واحدة بعد اخرى ، بفرح وانسجام كليين ، ما يخطر ببالي من خطوط متعرجة وملتوية على بعضها ، وما ظننته صورا جديرة بالرسم .. لقد بدت لي جميلة حقا بعد ان امتزجت الالوان المائية بالحبر الازرق .. لتغطي الصور الصغيرة الملونة التي كانت حواشيها تنتهي بتعرجات صغيرة جميلة ، اكتشفت فيما بعد انها تسمى طوابع، كانت ملصوقة على الاوراق البيضاء . كانت جميلة تماما وجديرة بان تعلق في صدر بيتنا .

تقلص لساني في حلقي الذي جف مثل تنور تستعر في جوفه نيران لافحة متصاعدة .. حاولت ان اقول ـ اجل .. انا ـ ولكني لم استطع .. رفعت اليه عينين شعرت انهما تراجعتا مذعورتين الى حفرتين عميقتين ، انشقتا في الجزء الاعلى من رأسي الذي كان يبدو لي دوما ، مثل كرة غريبة الشكل ، تستقر دون سبب معقول فوق رقبة هزيلة .. لم استطع ان ارى من وجه ابي غير فوهتي بركان احمر انفغرتا تحت جبهته .. سيول بركانية راعدة كانت تنطلق منهما دون ان يصدها أي شيء .. ظل يتطلع في منتظرا مني جوابا وكان العالم كله قد اختفى عن الوجود ولم يبق فيه احد غيري .. اخذ رأسي يدور .. فيما تراخى جفناي وبقيت انظر باتجاه الارض في فراغ كلي لا شيء فيه .. لم اعد قادرا على رؤية اي شيء .. كان قلبي يدق بعنف .. فيما اخذت ركبتاي تصطكان مثل اسنان طفل عار يجوب في زقاق مهجور في شهر شتائي .. اردت مرة اخرى ان اقول ـ اجل .. انا ـ حاولت ان ابعد ما بين شفتي اللتين كانت تحرقهما السيول البركانية اللاهبة .. كان ذلك صعبا للغاية .. وقبل ان انجح في فتح فمي ، ارتطمت بعنف على صفحة وجهي ، يد قوية مثل قبضة فولاذ ملتهب .. وبشكل لا ارادي ، انفرجت شفتاي اليابستان بفعل شهقة حادة تمزق معها صدري الصغير ..

سكون رهيب خيم فوق رؤوسنا نحن الثلاثة .. اخذت دموعي تنهمر بسخاء فيما تتابعت شهقات متقطعة مخنوقة عبر شفتي المرتعشتين .. وبديكتاتورية عريقة امر امي ان تفرغ غرفة صغيرة ـ كانت قد حولتها الى مخزن تضع فيه بعض الحوائج البيتية التي تتطلب جوا بعيدا عن نور الشمس ـ خرجت امي مبتئسة دون ان تقول كلمة واحدة .. وبقيت انا وابي وقد تسمر كل منا في موضعه .. فوق مساحة لا تزيد عن قدم واحد مربع .. عادت امي بعد قليل والرعب يلفها كعباءة سوداء ، لتبلغه بانها قد افرغت الغرفة من كل ما فيها .. امسك بيدي .. سحبني بعنف كما يسحب خروف صغير الى حيث ينتظره ذئب يتطلع اليه بشوق كبير .. دفعني بعنف داخل الغرفة ـ المخزن .. وخرج .. ثم عاد بكرسي خيزراني ومنضدة خيزرانية صغيرة .. وضعهما فوق بعضهما تحت نافذة صغيرة وجدت لها موضعا في اعلى الجدار .. كنت اتنفس بسرعة وبصعوبة .. « سيفعني فوق المنضدة الصغيرة .. ساسقط .. ستتحطم الكرة الغريبة الشكل التي تستقر دون سبب معقول فوق رقبتي الهزيلة » ... انتابني دوار شديد .. فتحت فمي باكيا ، وانا ابحث عن شيء من هواء اتنفسه .. كان هلع اسود يسكن قلبي .. كنت اهتز مثل سعفة يابسة تعصف بها ريح شرقية .. التفت الي .. خلت انه سيتحرك نحوي ليضعني فوق المنضدة الخيزرانية .. خطا نحوي خطوتين .. وبشكل لا ارادي تراجعت خطوة الى الوراء .. الا انه توقف .. سقطت علي نظرة جليدية .. انطلقت بعدها في صدره زفرة عميقة ، بدا لي انها استطاعت ان تهز رأسه ووجهه الاحمر مرة الى اليمين ومرة الى الشمال ، فيما كان الجليد ينث من عينيه ليتكرس في عروق دمي .. بقي كذلك لحظة خلتها الف سنة .. ثم ادار ظهره لي وسار نحو الباب .. وبعد ان انغلق الباب وراءه ، سمعت صوت المفتاح وهو يدور في فتحته .. وببطء شديد .. ادرت رأسي نحو الباب .. كان لسان فولاذي يمتد بين البابين ...

بقيت حيث تركني فيما كانت رعدة لاهثة تهز جسدي الصغير .. لا ادري كم من الوقت مضى علي وانا في هذا الوضع .. غير اني تكومت بعد فترة حسبتها عشرين دهرا في زاوية من الغرفة . تسمرت عيناي عند الخيزران .. غير ان الخوف من ان يخرج من ارضها او جدرانها شيء ما .. افعى .. عقرب او سعلاة لتلتهمني ، كان يبعد عيني بين آن واخر عن الكرسي والمنضدة .. حيث تجولان بخوف ، وهما تبحثان عن الافعى او السعلاة التي ستنشق ، او ربما انشقت الارض عنهما ..

كنت وانا غريق في بئر الرعب ، غير قادر على ان اميز الوقت .. فالغرفة كانت مظلمة برغم ان تلك الحادثة وقعت ظهرا .. كانت ستارة زرقاء داكنة مسدلة على النافذة .. والكرسي والمنضدة الخيزرانية الصغيرة كانا يتحديانني ان اصعد اليهما ، لازيح الستارة قليلا كي يدخل عبرها شيء من النور .. ولكنني لم افعل ذلك .. كنت خائفا .

ومع الرعب الذي كان يملأني .. كان ضجيج هائل مختلط بعويل

ونواح يتدفق عبر النافذة .. لم اكن ادري من اين كان قادما .. ولكنه كان في تصاعد مستمر .. كان يلفني مثلما تلف دوامة ماء عاتية، حزمة من عشب مائي اقتلعت من منبتها .. وضعت اصبعي في اذني .. غير ان الضجيج الهادر لم ينقطع .. تلفت حولي باحثا عن شيء اضعه في اذني ، وعن انغلاق الارض الذي لا بد ان يكون ذلك الضجيج ، الهدير الذي يرافقه ، مثل الرعد الذي يرافق انشقاق السماء.. ولكني لم ار شيئا من خلل دموعي التي كانت ما تزال تسح من عيني في الظلام .. تركت سبابتي في اذني دون جدوى .. كان الضجيج يعلو..والعويل والنواح يزدادان حرقة وكآبة .. شعرت بدوار بطيء تزايد سرعة مع الدوامة العاتية .. بحثت عن شيء من الهواء .. ابعدت شفتي الملتهبتين عن بعضهما وانا ابحث عن الهواء .. ولكني لم اجده .. ظللت ادور مع الدوامة .. شيء لا ادري ما هو اخذ يشد على رقبتي الهزيلة .. ودون ارادتي سحبت يدي من اذني .. بحثت عن ذلك الشيء الذي كان يشد على رقبتي الهزيلة .. لابعده عنها .. لم اجد شيئا .. تلمست رقبتي بيدين واهنتين .. كانت حيث كانت دائما .. لم يكن هناك شيء يطوقها .. فيما كان الشد يزداد قوة .. ازداد دورانـي عنفا .. مددت يدي في الفراغ ابحث عن شيء امسك به .. لم اجد شيئا .. بقيت ادور حتى لم اعد اعي شيئا .. ربما غفوت ..

لا ادري كم من الزمن مضى وانا في اغفاءتي .. غير ان هـزة خفيفة ايقظتني لتدفع بي من جديد الى بئر الرعب .. صرخة مكتومـة انطلقت من صدري .. فتحت عينـي .. احسست بامي تقف الـى جواري .. وبتعب شديد رفعت اليها رأسي .. الفراغ الذي حولي والذي لم يكن يحتوي غير امي والكرسي الخيزراني والمنضدة الصغيرة ، كان يبدو مشوشا .. كان يهتز اهتزازا غريبا حين انبعث صوتها وديعا :

ـ لم فعلت ذلك ـ الا تعلم انها اوراق مالية مهمة جدا ؟

كنت اريد ان اقول ـ لا .. لم اكن اعرف ذلك ـ ولكني لـم استطع .. شيء ما انشق في صدري مثل حد سكين ، سقطت بعده في نوبة بكاء متشنج .. لاعود من ثم الى عالم لا وعي فيه ، امتد منسيا في جوف السنين ، حتى فتحت باب غرفتنا الجديدة .. حد السكين ذاك عاد يمزقني وانا اقف عند عتبتها .. وعند ذاك فقط ، ادركت كم كانت تلك اللحظة بالغة الرعب والروعة في آن واحد ـ في رهبتها ! لقد امتدت الحياة باعماق مظلمة لا نهائية في رحم تلك اللحظة .. حتى نور الشمس انطفأ كليا لينكفيء على نفسه في اغوار ابدية سحيقة .. لم تكن غير لحظة .. جزيئة من جزء من الزمن .. وعندها فقط ادركت كيف استطاع بطل ديستويوفسكي ، اكد الاطباء انه لم يكن مخبولا على الاطلاق ، ان يشد حبلا من الحرير حول رقبته ويترك جسده مدلى من سقف غرفة صغيرة مهجورة تقع تحت السطح مباشرة ، ولا يمكن الوصول اليها الا بواسطة سلم خشبي ضيق طويل وشديد الانحدار ! بل وحتى انني ادركت ، كيف يمكن ان تبتلع امرأة جميلة تستطيع ان تدير الكرة الارضية في الهواء وقد علقتها بسلسلة ذهبية بسبابتها ، قنينة مـن حبوب منومة ، لتنتهي مارلين مونرو المثلة ، وتبدأ مارلين مـونرو الاسطورة .. وفي اللحظة عينها شعرت انني انا ايضا كنت جديرا بان اغرس كل اصابعي في عيني او ان اترك جسدي معلقا بحبل غليـظ اشده بمسمار من الفولاذ في سقف غرفتنا الجديدة .. ولكنني لـم افعل ذلك ليس لانني لم اكن امتلك تماسكا متفردا ومتساميا كتماسك اوديب ، او ارادة نيكولاي ستافروغين ، او رفض امرأة عالمية الشهرة .. ولا اقول هذا تبجحا بجراة لا امتلكها .. ولا بسبب الفارق الهائل بين مآسيهم العظيمة والوضع الذي اخترت انا ، لحد ما ، ان اكون فيه وان اجعله قدرا للاخرين .. وانما لانني في تلك اللحظة فقط ، ولاول مرة في حياتي ، احسست بوجودي احساسا عنيفا ومتوترا الى حد الانفصام . كنت في تلك اللحظة ممتلئا بكل كثافة الحياة وزخمها .. بكل عذاباتها الممزقة .. بكل عتمتها .. وبحضور كلي مفاجيء وغريب .. ولا شيء غير ذلك . فجأة وجدت نفسي أمام اختيار رهيب .. أن انهي ذلك الوجود القائم في أبدية تلك اللحظة الظلماء التي انطفأت الشمس فيها .. او ان امسك بذلك الحضور المفاجيء الجديد .. ان امتلكه واقف على قدمي من جديد .. اطوقهما بحجول شوكية .. وادع عيني تتسعان اكبر فاكبر ، عله يكون في مقدورهما في يوم من الايام ان تكتشفا بعض حياة في ذلك الموت الذي كان يملأ الغرفة الصغيـرة بتحد خبيث . لا ادري كم استغرقت تلك الافكار من عمري .. ولكنني كنت متاكدا انها تزاحمت جميعا في جزيئة من لحظة من الزمن . وامام حقيقة الموت وحقيقة الحياة .. امام راحتي الابدية .. واطواقـي الشوكية ، اتخذت قراري .. ربما لانني لم اكن جديرا بالبطولة .

نصل خنجر انسل في خاصرتي .. حاولت ان لا اشعر بالمي .. وجهت دعوة مفتوحة للندم الذي يكون احيانا اكبر من الالم .. وربمـا اكثر نبلا .. كانت دعوتي تلك كفارة عن خطيئتي .. لم اكن ادري ماذا يمكنني أن افعل .. بل لم اكن املك انذاك ارادة فعل اي شيء .. وبصمت .. ودون ان اعلم كيف .. وبعد شلل كلي قصير .. وجدت انني قد استحلت الى قطعة صماء لا حياة فيها .. كل تطلعاتي وامنياتي في عالم الادب .. كل صداقاتي التي تنامت مع الايام مع اناس لـم ارهم .. ومع اخرين ما زلت اعايشهم واودهم بصدق ، ماتت داخـل قشرة تلك القطعة الصماء التي صرتها انا في غمضة عين .. قطعة صماء منبوذة مثل مسخ كافكوي .. وخزات التأنيب التي كانت تنصب علي كل صباح وكل لحظة من كل لسان وعين حولي ، كانت ترتطم بجلـد تمساح ، فيما كان كل ما كان داخل ذلك الجلد يتآكله الندم ..

كانت الايام تمر وانا داخل قوقعتي التمساحية .. كل الوخزات التي كانت ترتطم على غلافي الخارجي ، كنت اتيح لها ان تنتقم مني خلسة .. وصبر ذلك الانتقام الصامت الخفي كنت اجد عزائي .. احس انني قد برئت .. وخزة واحدة .. مهما فعلت .. مهما اتحت لها ان تثار مني بعلم منها او بغير علم .. وحتى لو تلوت امامها اعترافـاتي بخشوع .. ما كنت اجد امامها ما يمنحني براءتي او عزائي .. فـي يوم واحد .. في لحظة واحدة .. انفصم الى الابد ، ذلك الربـاط الذي كان يشدنا ـ وفي لحظة واحدة قام جدار من جليد في غرفتنا .. كانت تجلس ـ ساعات بكاملها عند منضدتها ، تعمل مثل نحلة جديدة .. ولا ادري من اين كانت تاتي بكل ذلك العمل دون ان ينتابها تعب . ومذ جئنا هنا .. اصبحت مشردة .. فيما صرت انا اقضي ساعـات طوالا افكر في نظريتي عن الخير الذي هو في حالة صيرورة . كنـت واثقا انها كانت تترك الغرفة فترات طويلة ، ليس هربا من الضجيج .. ففي المبنى الجديد ، اينما ذهبت ، ينهمر الضجيج من كل زاوية .. من كل نافذة مفتوحة او مغلقة .. كنت واثقا انها لا تريد ان تقول لي : انك انت السبب في ماساتنا جميعا .. كنت اتمنى من كل قلبي ان تقولها .. ولكنها لم تفعل .. هل تدرك ان صمتها كان اشد ايلاما! والسنوات الخمس اليس لها كرامة ؟ وبرغم كل ما كنت اعانيه بسببها، احساس لعين ومضحك كان ينبت في راسي .. حاولت ان اوقف نموه .. ولكني فشلت . زميلتي التي كانت تمتلك تحررا فكريا غريبا بالنسبة للنصف الاخر من مجتمعنا ، والتي كنت اعتبرها شخصا قريبا جـدا الي .. اطلعها على كثير من أسراري وخصوصياتي دون احراج ، برغـم اننا كنا ندرك تماما اننا شرقيون جدا ، ونعيش في بلد شرقي جدا ، تسكنه روح القبيلة واعرافها في كل زاوية ومنعطف وفي كـل عـرق ينبض .. زميلتي تلك بدت لي فجأة ، برغم بساطتها وعذوبتها، وكانها تقمصت شخصية موظف اداري في بلد من بلدان العالم الثالث ... فاصغر موظف في مثل هذا الخط من الجهاز الوظيفي ، يستطيع بسهولة غريبة ان يشعر ، فورا بعد صدور امر تعيينه ، شعور اقطاعي صغير .. وبصبح جميع العاملين في الاقسام الاخرى ، بما في ذلك الاقسام الرئيسية التي تقوم بالتنفيذ الفعلي لاهداف المؤسسة ، والتي ينشا القسم الاداري فقط من اجـل تقديم الخدمات لها لتسهيل تنفيـذ

مهماتها ، يصبحون اقنانا في اقطاعية ذلك الموقف البائس ، الذي يأنف في الحديث الا مع من هم اعلى منه مرتبة . اما كبار القسم الاداري ، فببساطة متناهية يلبسون بزة فوهرر .. ويندرج جميع العاملين ، في مقاييسهم ، في حدود معادلة اولية من الدرجة البسيطة :

٦ ساعات + راتب = موظف (اديب ، مفكر ، صحفي، محاسب، كاتب صادرة ـ واردة ، رزام ، فراش ، مترجم الخ .. كلهم سواسية، كأسنان المشط !) وكل العلاقات القديمة .. وكل الاعتبارات والقيم الادبية .. وكل الصداقات القديمة التي كانت تربطهم بالآخرين ، قبل ارتدائهم تلك البزة ـ تسقط في لهيب الرايخشتاغ ! يا الهي .. متى سنتخلص من تلك الوصمة اللعينة ـ الثالث ؟ أيمكن ان تكون زميلتي الرقيقة (سابقا) قد ارتدت جلد فوهرر ، كما ارتديت انا جلد تمساح؟

كنت اتعذب في وحدتي داخل قشرتي التمساحية .. كنت اريد ان اعود لانسانيتي ان كنت قد فقدتها .. « فحين تعذب آي انسان ، او تكون سببا في تعذيبه باية درجة ، فمن المشكوك فيه ان تكون شبيها به . » تلك كانت عبارتها .. قالتها مرة ونحن نناقش المشاكل التي لا حصر لها والتي كانت تنزل على رؤسنا كالمطر ، نتيجة تخلف الجهاز الاداري في مؤسستنا . تمنيت مرة ، ومرة ، ومرات ، كأي وريث غير شرعي لرومانتيكية ساذجة ، ان اجثو عند قدميها ، (مثل اي روميو عتيق ، برغم ان علاقتنا لم تكن تتجاوز حدود مودة طبيعية ، خالية من اية وشائج عاطفية) لا لاطلب الصفح والغفران .. أو حتى لاعترف بخطيئتي .. وانما لاطلب منها أن تدينني . وما استطعت ان اكون ذلك الروميو العتيق ، ولا هي ادانتني .. جدار الجليد كان يحجب احدنا عن الآخر ...

لم اكن اعرف اين كانت تذهب .. وماذا كانت تفعل ومع من كانت تتكلم .. تمنيت لو كنت اعرف .. فربما كانت تجد هناك من تدينني امامه ، وفي ذاك قد أجد بعض الغفران . مرة عادت .. لم ارها .. احسست بمجيئها فقط .. فعيناي كانتا ملتصقتين باوراق فارغة بيضاء انتشرت على منضدتي .. وبعد لحظات ، لا ادري كيف حدثت المعجزة التي انتظرتها طويلا .. ووضعت لها مخططات فاشلة لم تستطع ان تمارس حقها في حرية مغادرة راسي .. وبرغم الانتظار المرهق الطويل .. وبرغم خيط النور الذي حسبت انه سيذيب جدار الجليد .. غرقت في مأساتي من جديد .. فانا لم اكن انتظر سؤالا ـ كنت انتظر حكما بالادانة . وسؤالها كان يريد مؤاساتي .. كما لو كنت قد فقدت انسانا عزيزا ! كل الكلمات التي اعددتها .. كتبتها .. قلتها مع نفسي الف مرة وكانني أحفظ دورا مسرحيا ، لعلي اجد في ذلك شفاعة حين تصدر حكم الادانة بحقي ، انطوت على نفسها .. تراجعت الى الوراء .. ثم اندفعت بقوة عاتية لتتمزق على جدار الجليد القائم بيننا .. وبآلية جامدة .. وجدتني اقول كابله يصر على ان يظل ابله حتى اللحظة الاخيرة من حياته ..

ـ الم اقل لك ان القدر بدأ يدخل حياتي ؟

وطواني الصمت من جديد .. لعنت نفسي الف مرة .. كنت اريد ان اتحدث .. ان احطم الجليد .. ان اسد الثغرة التي انفتحت في اعماق السنوات الخمس .. ولكن .. لم اجد ما اقوله .

مرت ايام .. والثغرة التي انفتحت بيننا تزداد عمقا واتساعا .. حتى جاء يوم اكد ما كنت اتمنى ان يكون مجرد ظنون .. ودون تفكير مسبق او تصميم .. امتدت لها يدي بعذاباتي مكثفة في وريقات بائسة .. ثم غادرت غرفتنا الجديدة كنت اخشى ان تجد فيها ما يبعث على الرثاء او السخرية وانا قابع امامها اتعذب وحيدا داخل قشرتي التمساحية .. داخل زنزانتي الجديدة (وزنزانتها هي ايضا) . ففرفتنا الجديدة ، برغم الحبل الصوتي المتين الذي يشدنا دون انقطاع بالعالم الخارجي ، لم تكن غير زنزانة حقيقية . ولتلافي اي سوء فهم قد يوحي به تعبير زنزانة ، لا بد ان اوضح ان احساسي هذا لم يكن منطلقا من تصورات محتملة تفترض وجود قيود لا تطاق فرضت علينا قسرا . فنحن والحق يقال نتمتع بحرية تصل احيانا درجة المطلق . فنحن مثلا نستطيع ان لا نأتي الى المكتب في اي يوم نشاء ، دون ان نخل بالتزاماتنا الوظيفية . (يمكن أن نفعل ذلك دون تفاهم مسبق ، وانما انطلاقا من فهم ضمني غير معلن بين اعضاء اسرة مكتبنا ، جاء كنتيجة طبيعية لادراكنا ادراكا عقلانيا صائبا ، بان النتاج الفكري غير مشروط بزمان معين ، وغير مقيد بمكان . فانت قد تكون في باص ، وتولد في راسك قصيدة ترتقي منزلة المعلقات ، بينما يمكن ان تبقى في مكتب فخملي أنيق شهورا طويلة ، ولكنك تعجز عن خط حرف واحد .. وبطبيعة الحال فان ادراكنا العقلاني لحقيقة انفلات النتاج الفكري من سيطرة الزمان والمكان ، ولد دون علم القسم الاداري ، والا فان النتيجة كانت ستكون عملية اجهاض لموقف علمي صائب وجهود فكرية قيمة .) وقد يتساءل البعض ، بعد هذه المقدمة الطويلة عن الحرية التي نتمتع بها ، لم اذن اخترت ان اطلق تعبير زنزانة على غرفتنا التي بذلت جهودا مضنية من أجل الحصول عليها ؟ المسألة لا تتطلق في الواقع من موضوعة فلسفية انسانية عميقة تقول ان الحرية سجن بمعنى ما . وانما تنطلق كليا من موضوعة هندسية ـ معمارية صرفة . فمكتبنا ، مثله مثل اية غرفة طبيعية ، يتألف من اربعة جدران وارض وسقف . وفي قلب الجدار المقابل لي ، شقت نافذة متواضعة موقعا لها . وبرغم كونها متواضعة ، وانها كانت اعتيادية الشكل والحجم والوقع ، وبرغم ان المرء يستطيع النظر عبرها بكل سهولة، وهو واقف على قدميه دون حاجة الى ما يرفعه بضعة اقدام عن ارض الغرفة ، فانها كانت تحتل موقعها بتحد واضح . فهي لم تكن تطل على شارع او ساحة عامة أو حتى ممر في المبنى .. وانما كانت تطل بغباء غير مبرر، على غرفة زميل لنا . ومن هنا ، فانه لم تكن هناك اية حاجة اطلاقا لازاحة الستار قليلا لمعرفة الاسرار الكامنة وراء هذا الجدار . وما يزيد الشعور بعدم الحاجة اليها ، الستارة المسدلة باستمرار عليها والتي يستطيع لونها الاخضر الباهت ، دون جهد ، ان يسد شهية المرء لتناول طعام الغداء .. اما الجدار المقابل للجدار المواجه لي والذي يشكل خلفية الصورة التي كتب علي ان اقبع ، انا ومنضدتي وكرسي وكتبي ، في مركزها ، فكان يحتل الجزء الاعلى منه نافذة صغيرة جدا يبلغ طول ضلعها الاكبر ثلاثة ارباع المتر تقريبا ، اما الاصغر، فيبلغ طوله نصف متر تقريبا . كانت تلك الفتحة الجدارية المتعالية ، المنفذ الوحيد الذي يصلنا بالعالم الخارجي .

(الباب في حالة مكتبنا لا يمكن ان يعتبر وسيلة اتصال مباشرة بالعالم الخارجي من ناحية معمارية ، اذ انه كان يصل الغرفة بركن صغير منزو مرتبط بالهول .) وبرغم ارتفاع ضلع النافذة الاسفل عن الارض حوالي ثلاثة امتار ، فقد اسدلت عليها ستارة مترهلة، وبتعبير معاصر ، « ستارة ماكسي » ، تتدلى من اعلى الجدار حتى تلامس الارض ، بشيء من دلال لا ينسجم ، لا مع روح العصر ، ولا مع الستارة نفسها ، سواء من ناحية نوعية او لونية او جمالية . فعدا عن انها كانت من نوعية رديئة واضحة ، مثل نوعية تلك التي كانت تحجب مجال الرؤية بين غرفتنا وغرفة زميلنا ، دون سبب واضح ، مثلما كانت تصد ، دون سبب واضح ايضا ، اي قدر ضئيل من ضوء يمكن ان يتسلل الى غرفتنا عبر تلك النافذة الغريبة الموضع ـ فان لونها كان من نفس لون ذلك الاخضر المقيت الذي يستطيع دون جهد ان يسد شهية المرء لتناول طعام الغداء . وقد يزداد هذا الاحساس بفقدان الشهية، نظرا لما يثيره شكل الغرفة وموقعها ، وموضع النافذة الصغيرة وحجمها من اقترانات ذهنية . فهي تذكر المرء بانها قد صممت لتكون مخزنا ، نظرا الى ان الشمس برغم عظمتها الكلية ، لا تستطيع ان تشق طريقا لها ، تتسلل منه الى غرفتنا القميئة ، في اية ساعة من ساعات

النهار ، مما يشيع فيها جوا محملا برائحة عفونة ازلية رطبة ، يصعب التنفس معها . وفي احسن الاحوال ، فانها قد توحي بكونها غرفة انتظار في عيادة طبيب . حيث ان المرضى ، اذا ما اجتمعوا في مكان ما ، فان كل واحد منهم يحرص على اقناع الاخرين بان امراضهم مجتمعة لا تعادل عشر آلامه الليلية ، مما ينسيهم الاهتمام بالتطلع عبر نافذة ، الى زرقة السماء او خضرة شجرة ، او عابر سبيل ، كما ينسيهم جوها المشبع بعفونة ازلية رطبة . اما ان تكون مكتبا متخصصا بالانتاج الفكري ، فهذا شيء اظنه كان اخر ما يمكن ان يفكر به المهندس المعماري الذي صمم المبنى ، خاصة اذا تذكرنا ان ضجيج السوق الذي يقال انه يقع مباشرة تحت الجانب الخلفي من العمارة ، ينصب مثل سيل لا يقف في طريقه اية حواجز ، في غرفتنا عبر تلك النافذة الصغيرة المترفعة ، وكذلك ، في جميع الغرف الاخرى الواقعة في هذا الجانب من المبنى ، عبر نوافذ مماثلة . واذا تملكتك نزوة فضول عابرة لترى اي شيء هناك في الجانب الاخر من هذا الجدار ، الذي كان يقف بيني وبين منابع العبقرية ، فينبغي ان تضع كرسيا ومنضدة صغيرة فوق بعضهما ، وتقفز عليهما ليصبح مستوى نظرك بمستوى الحد الاسفل من النافذة . ومع ذلك فان نزوة الفضول تلك لا يمكن اطفاؤها ، حيث ان القضبان الحديدية التي تمتد داخل اطار النافذة ، لا تسمح لراسك بالامتداد عبر فراغها ، لترى اي شيء هناك في الجانب الاخر من الجدار . وكل ما تستطيع رؤيته ، القسم الاعلى من جدار آخر يعود لمبنى ليس بعيدا .

ان نافذتنا في الواقع تشبه كوة مستطيلة ذات اضلاع مستقيمة، استقرت في اعلى الجدار وليس في السقف كما هي الحال اعتياديا بالنسبة لمثل هذه الفتحات الصغيرة التي تسمى مفردتها كوة ، والتي تفتح عادة للسماح لشيء من اتنور بالدخول في المساكن الحريمية الطابع ، التي لم يهتم المهندسون والمعماريون الاوائل بتزيينها بنوافذ اعتيادية تستقر في الجدران على ارتفاع مناسب خشية عيون المتطفلين، واحيانا خوفا من الحيوانات المفترسة . اما بالنسبة للمبنى الذي يقع فيه مكتبنا ، فان سبب اختيار اعلى الجدار بدلا من السقف ليكون موضع الكوة ، هو ان هناك ستة طوابق على ما اظن ، فوق طابقنا . وبطبيعة الحال فان فتح كوة في السقف يتيح لعيون المتطفلين ان تمتد الى ما لا يسمح لها به ، من اعلى الى اسفل . وبرغم انني استطعت ان اجد تفسيرا قد يكون صحيحا لعدم استغلال السقف استغلالا طبيعيا لمثل هذه الفتحات الصغيرة ، فقد ارهقت ذهني الى حد الصراع ، دون ان استطيع التوصل الى سر او حكمة وضع النافذة في الجزء الاعلى من الجدار ، وليس في وسطه مثلا ، او على ارتفاع يمكن المرء من الرؤية عبر النافذة وهو واقف على قدميه . كما ان ذهني عجز كليا عن ادراك مغزى وضع قضبان حديدية متوازية تمتد بصورة افقية بين الضلعين الصغيرين من اضلاع كوة ترتفع بمقدار عشرة امتار ، على الاقل ، عن مستوى اقرب سطح اليها من الخارج . كما عجزت عن ادراك سبب عدم وضع قضبان مماثلة داخل اطار الفتحة الجدارية الاخرى . اذ ان لا معقولية وجود قضبان عبر النافذة الصغيرة العالية، كانت تتعارض بنفور مع معقولية عدم وجود قضبان عبر النافذة الاخرى التي تحتل موقعها بلا معقولية كلية بين غرفتين متجاورتين . وما استطعت ايضا ان اجد تعليلا لاسدال « ستارة ماكسي » من اعلى الجدار الى ارض الغرفة على تلك النافذة العجيبة . ومنذ انتقلنا الى هذا المكتب ونحن لا ندري في الحقيقة ، اي شيء هناك في الجانب الاخر من الجدار ، برغم ما يقال عن السوق الشعبية التي ينهمر ضجيجها علينا كالمطر ، حتى وان كانت النافذة العجيبة مغلقة باحكام كلي . وبرغم التهنئة الصحيحة التي تلقيتها من مدير الادارة على مشاريعي الادبية التي ستنغلق عنها السوق الشعبية في يوم من الايام، فقد بقي الجانب الاخر من الجدار بالنسبة لنا ، تماما مثل الجانب الاخر من القمر قبل عهد المحطات الكونية . وبرغم نزعة الفضول الادبية المتاصلة في ، والتي كنت دوما احرص على تنميتها باستمرار لانها تدل احيانا ، برأي البعض ، على ذكاء خاص ونزعة انسانية اصيلة للتعرف على العالم ، فان احدا لم يحاول حتى الان ، القيام بمغامرة للكشف عن اسرار الجانب الاخر من الجدار ، نظرا الى ان ايا منا لا يرغب في الاستغناء عن احدى ساقيه حتى وان كان ذلك بصورة مؤقتة .

هذه ببساطة مواصفات غرفتنا الجديدة .. ولا اظن ان شيئا من تركيبها الفسيولوجي او النفسي قد فاتني . ولم يبق هناك شيء غير الوشاح الداخلي الذي كانت ترتديه . كان كله يتسم بالبياض الذي كان يندلق من السقف على الجدران العارية ، وينعكس بملل على الارض التي رصفت ببلاط ابيض انتشرت عليه بغير انتظام نقاط سود صغيرة .

كل ذلك النقاء الذي كان يغلف غرفتنا من الداخل ، باستثناء لون الستائر المقيت ، لم يستطع ان يغير احساسي المتعمق بكونها زنزانة لا غرفة مكتب . ومع ذلك ، وبرغم الضجيج المتهور ، فقد بدات اشعر بتآلف غريب تؤطره حيادية واضحة المعالم وفي غير موضعها ، مع غرفتنا الجديدة . فلم اكن احس باي ميل نحوها ، كما لم اكن في الوقت عينه ، اشعر باي نفور منها . ولا ادري ان كان هذا الشعور بالتآلف غير الطبيعي نتيجة لعملية تأقلم كانت تجري بشكل مستمر وخفي ، ام انه كان طورا من تعذيب ذاتي املاه علي عقلي الباطن، ثارا لما ارتكبته بحق الاخرين . وبرغم حيادية مشاعري تجاه الغرفة ، فقد كنت احيانا اشعر بابتئاس حقيقي موجع ، تمتد نواصله في كل جوانبي، خشية ان تكون هذه المرحلة بداية نهاية اهتماماتي وطموحاتي الادبية، او انها دليل على اصابة قواي العقلية بعطب ما في موضع ما . غير انني كنت اعلل المسالة كلها بانني ربما بدات الج مرحلة حياتية جديدة، ذات ملامح صوفية ، تمتلك القدرة على تجاوز كل ما هو كائن حولي والتجلي بانانية كلية الى عوالم بعيدة اخلق فيها هدوئي الموهوم .

ولكن .. وبرغم كل تلك المشاعر المتناقضة التي كانت تتصارع في داخلي الذي كان يتآكله ندم لا نهائي المدى ، كنت احس بشيء يشبه حكة تحت الجلد .. كلما حككتها اكثر ، كلما ازدادت حرقة .. كنت احس ، وانا في غرفتنا الجديدة ، انني امتلك عيني رجل لا يريد ان يتذكر ان السلوك المتحضر يفرض عليه ان ينسى ان المجتمع البشري ينقسم الى جنسين في الدوائر والمؤسسات العامة ، باستثناء ما يتعلق بالجاملات الاجتماعية .. على الاقل هذا ما كنت الاحظه في دار النشر ، التي كنت اعمل فيها خارج الوطن ، ابان سني تشردي السياسي . اما الان فانني تماما ، كاي رجل شرقي يتمنى ان يرى خمس سنتمترات فقط فوق الكاحل ، ان كان امامه « ماكسي » .. واذا كان « ميدي » ، فالسنتمترات الخمس الممتدة من اسفل الركبة .. اما اذا كان بمواجهة « ميني » ، فلا تبقى حدود لتمنياته.. ونافذتنا كانت « ميني » جدا .. وبعيدة جدا .. كنت اتمزق في داخلي كلما ارتفعت اليها عيناي . وبرغم انني ادرت ظهري لها ، الا ان ذلك لم يفلح الا في تاكيد حضورها غير المرئي . كنت احس احيانا كمن يصاب بهوس مجنون وهو امام « ميني » بعيد لا ينال . فكرت طويلا .. ساعات بكاملها كنت اقضيها مفكرا ابحث عن حل .. انتهزت مرة فرصة بقائي وحيدا .. جمعت كل اطراف شجاعتي .. فيما كانت ترن في اذني كلمات بعيدة .. لقد وصلت المدينة فرقة سيرك اجنبية لتقدم العابها في الساحة ذات الاسيجة العالية التي يطل عليها جدارنا الذي تحتل النافذة الصغيرة الجزء الاعلى منه .. جئت بكرسي مجدول من الخيزران .. وضعته تحت النافذة .. وضعت فوق الكرسي منضدة خيزرانية صغيرة .. صعدت فوق الكرسي .. وبحذر .. تسلقت المنضدة الخيزرانية الرقيقة .. وفي لحظة .. تمزقت المنضدة الخيزرانية الصغيرة تحت قدمي .. والفيت نفسي على الارض كومة

بشرية بساق مكسورة !

لقد نسيت كل شيء عن مغامرتي تلك التي قمت بها وانا في التاسعة من عمري في الغرفة الصغيرة التي حولتها امي الى غرفة مخزن . كانت تلك الغرفة الصغيرة ذات اللون الابيض ، اصلح مكان في بيتنا يمكن ان يحول الى مخزن ، اذ انه لم تكن توجد فيه غير نافذة واحدة صغيرة . تشبه شبها تاما نافذة مكتبنا الجديد من كل نواحيها: شكلها .. حجمها .. موقعها .. وقضبانها .. باستثناء الستارة. كانت تلك ذات لون ازرق داكن ، ولا يزيد طولها عن متر واحد . شيء مثل حد الموسى كان يحز في نفسي كلما دخلت تلك الغرفة الصغيرة .. اي شيء هناك يا ترى في الجانب الاخر من الجدار .. وراء تلك النافذة القميئة المترفعة ! حد الموسى نفسه ذاك كان يمزقني وانا امام « الميني » نافذة في غرفتنا الجديدة . لقد نسيت كسر ساقي تماما .. ولكنني كنت دوما اتذكر بحرقة فرقة السيرك التي لم ارها ابدا .. اكتب علي ايضا ان لا ارى السوق الشعبية ابدا ؟!

كانت زميلتي قد غادرت الغرفة كما اعتادت ان تفعل مؤخرا .. ساعيد التجربة .. قد افلح هذه المرة .. انني الان اكبر سنا واستطيع ان اضع الاشياء فوق بعضها البعض بشكل متوازن تماما .. كما انني الان اقدر على السيطرة على توازني .

رفعت ساقي اليمنى .. وضعتها على حافة الكرسي الخيزراني .. مرت لحظة .. اثنتان .. وانا جامد بين الارض والخيزران ..

ولحظة ثالثة .. اكتشفت معها انني لا استطيع ان « اسرق نور الشمس » عبر قضبان نافذة !

(٣)

امتلكني وجوم غريب مهيمن حين انتهيت من قراءة مشروع قصته .. كنت ادور في دوامات هائلة مثل اعصار هائج من اسئلة لا حصر لها ..

كنت اقف امام انسان جديد تماما .. لا اعرفه على الاطلاق .. وبعد سنوات خمس او اكثر ، اكتشفت انني كنت اعيش ست ساعات يوميا مع شبح لا يملك من الواقع الذي يتبدى فيه شيئا . كان انسانا اخر يعيش في جلد غيره ، خاله في ظرف معين ، جلد تمساح .

الحكة التي كانت تزداد حرقة تحت جلده ، انتقلت الى ما تحت جلدي انا .. كنت سابقا ، ومنذ انتقلنا الى المبنى الجديد ، افكر به ست ساعات تقريبا كل يوم .. غير اني ما اكاد اغادر المكتب حتى تجتذبني اهتمامات اخرى ، تنسيني كل ما يرتبط بالمكتب .. ولكنني الان صرت افكر به ليل نهار ، دون انقطاع .. وفشلت كل مشاغل الحياة في ان تجرني اليها .. حتى المهمة منها ، ما كانت تستطيع الاستحواذ على تفكيري .. صرت مثل مراهقة تحب للمرة الاولى في حياتها .. ولكنني كنت واثقة ان ما يجعلني اقضي الوقت كله وانا افكر به ، لم يكن الحب . كنت امام لغز مغلق يتحداني كل لحظة .. يقهقه من تصوراتي بانني كنت اعرفه معرفة جيدة .. اي نوع من الناس يا ترى هذا الذي قضيت مع غلافه الخارجي اكثر من خمس سنوات ، وكنت اظن انه كان يفتح امامي احيانا مغالق اعماقه ، فاذا بي اجد نفسي فجاة امام عالم خفي موصد الابواب ، ملفوم باسرار دفينة ، يبدو لي انه هو نفسه ما زال بعيدا عن معرفة الكثير منها ..

كيف لي ان افتح الابواب الموصدة .. عدت الى وريقاته .. اخذت عيناي تتنقلان عبر خطوطها من جديد .. وتوقفت .. ولكن لم ترك الغرفة بعد ان مد لي تلك الوريقات .. هل غادرها خوفا من ان اجد فيها ما يثير الرثاء او السخرية .. ام لانه لم يكن قادرا على ان يواجه ذاته الحقيقية الجديدة التي اكتشفها فجاة ودون وعي منه ، ولم يكن مهيأ بعد ، لملاقاتها ؟ ذاته الاولى التي دفنتها السنون في طواياها منذ تلك الحادثة المرعبة في السجن الاول الذي دخله .. والجانب الاخر الذي تبقى من ذاته تلك ، والذي لم يكن اقل صدقا ، الا انه لم يكن اقل رفضا منذ حادثة سقوطه .. لقد تحجرت ، في السنوات الاولى من حياته ، كل المعالم الحقيقية لذاته التي تلت السنة التاسعة من عمره ، ولم يبق من ملامح الصورة الاصلية ، غير ما يحته دوما على اللهاث وراء اي شيء يستطيع ان يطمس تلك البقايا .. حتى غدت تلك الذات التي عاش داخلها بعد السنة التاسعة ، غريبة عنه كليا ، ولم يكن قادرا على ان يتعرف عليها هو نفسه .. وخلال السنوات العشر التي اعقبت حادثة سقوطه ، استطاعت ديكتاتورية ابيه ، الذي عاد للمدينة كي يقيم معهم ، ان تدوس بضراوة كل نبتة جديدة تحاول ان تنمو في اعماقه .. ولم يعد غير وجود شبحي يتحرك بلا ارادة في مجال مغناطيسي ، تعين حدوده المقدسة تعاليم واعراف ابوية لا يمكن تجاوزها .

حاولت ان اتذكر بعض ما رواه لي عن طفولته ووالده وحياته البيتية .. حكايات مبعثرة وعبارات متناثرة مثل شظايا مرآة محطمة، بدأت تتجمع في ذهني ..

« كان ابي قاسيا .. متعنتا واستبداديا بشكل غريب ، ولكنه كان يحبنا ايضا بشكل غريب .. كان يتصور ان من حقه ان يكون قاسيا معنا ، لانه كان يحبنا مثل ذلك الحب .. او لعله كان يريد التخلص من سيطرة ذلك الحب عليه بمعاملتنا بقسوة .. كان من النوع الذي يحب السيطرة على الاخرين ، ولا يسمح لاي شيء ان يمارس اي نوع من التسلط عليه ، حتى اذا كان ذلك الشيء ، عاطفة نبيلة مثل الحب ..

« كان يعتقد ان الابناء ينبغي ان يتعرضوا لعملية صهر خلال سني حياتهم الاولى ، ليصبحوا رجالا حقيقيين .. اما ماذا كان يعني تماما «برجال حقيقيين» ، فان احدا لم يكن يجرؤ على طرح سؤال كهذا امامه .. اذ ان ما يقوله لا بد ان يكون واضحا على الدوام ، بشكل لا يجوز معه لاحد ان لا يفهمه . واذا ما ارتكب احدنا خطأ ما .. حتى وان كان تافها ، فان عبارته التقليدية (انك لم تتعرض بعد لصهر كاف) ، التي كانت تشمل احيانا حتى امي المسكينة ، مع الابقاء على العبارة بصيغة التذكير ، لسبب لم يجرؤ احد منا ان يستوضحه منه ، كانت اول شيء يقذف في وجوهنا .. اما عملية الصهر .. فقد اكتشفنا من خلال ممارساته ، انها تعني الصرامة والقسوة التي تصل احيانا درجة من البطش لا يستطيع انسان ان يتحملها .. كنا دوما مطالبين بتقديم تقرير واف عن الاخطاء التي قد نرتكبها ، قبل ان يسمع عنها من طرف ثالث . فالاقرار بالخطأ ، كما كان يصر دوما ، جزء من عملية الصهر .. وحين كان يلقي علينا محاضراته في الاخلاق وفي صهر الانسان ، كان لا ينسى ان يؤكد دوما ان الانسان ينبغي ان يحتقر الالم .. فالالم ليس من صنع الانسان .. وانما يمكن ان يعرف بانه (كارثة او مصيبة او وضع غير مريح ، يحل بشخص ما ، لا على التعيين ، بفعل قوة خارجية طارئة : جرثومة .. ميكروب او طقس متغير .. او برد ..) ولذلك لا عبرة هناك يستطيع ان يخلفها الالم ـ اذ سرعان ما ينسى بعد زوال الكارثة . وكان الاساس الوحيد الذي بنى عليه نظريته في موضوعة الالم .. هو المراة ـ فالمراة بنظره ، تربة الحياة .. ولذا فان جميع نظريات الحياة او ماله علاقة بالحياة، يجب ان ينطلق من هذا الاساس . اما علاقة المراة بنظرية الالم الذي لا يستطيع ان يقدم اية عبرة .. فهي ان المراة تستطيع ان تقدم للعالم عشرة ابناء او اكثر ، برغم الالام التي تمزقها ، حين ينطلق القادمون الجدد الى العالم . غير ان موقفه هذا من المراة ، لم يكن ينطوي على اي فكر تقدمي ، كما قد يبدو ، وانما كان ينطلق في الواقع من فكره المحافظ الذي يعتبر المراة تربة صالحة تتطلب رعاية خاصة للمحافظة على قدرتها الانتاجية والخدمية . كان دوما يكرر علينا هذه العبارة التي يبدو ان اعجابه بها لم يكن يقل عن اعجابه بعباراته التقليدية الاخرى

المتعلقة بعملية صهر الانسان ، (اتعلمون اي شيء يأتي في مرتبة اعلى من الالم ؟ انه الندم !) فمن طريق الندم ، كما كان يظن ، تستطيع الذات ان تصل الى مرحلة اعلى من الارتقاء الانساني ـ ان الانسان ينبغي ان يسقى مثل الحديد .. والندم هو الذي يسقي الانسان .. حين كنت اقترب من سنتي العشرين ، بدات احس ، مع اتساع مداركي ، ان نظريته عن الالم والندم وسقي الانسان .. كانت غير صحيحة .. غير انني لم اجرؤ على تصحيحها .. فالالم ايضا يصهر الانسان ـ والارتقاء الانساني لا يتم عن طريق الصهر .. وانما العلم..»

كنا نضحك معا حين كان يروي لي تلك الحكايات وغيرها عن والده ، الذي توفي بعد ان عاش معهم عشر سنوات تقريبا .. حاولت ان اتذكر اشياء اخرى يمكن ان تلقي اضواء جديدة على الشخصية التي وجدت نفسي امامها فجاة وجها لوجه .. ولكني لم استطع ..

حين كان يحدثني عن والده وتصرفاته الصارمة لم اكن اتصور انها خلفت وراءها اثارا عميقة في سلوك وحياة زميلي ، خاصة وانه كان يبدو هادئا محبا للحياة ولكل الناس ، ومتفائلا بشكل مضحك احيانا . ولكن الشيء الذي اثار استغرابي ، باديء الامر ، انه لم يرو لي اي شيء عن حادثة سقوطه ، وهو يحاول الوصول الى النافذة الصغيرة العالية ، مرة روى لي بشكل عرضي انه اصيب وهو في التاسعة من عمره بحادث ـ مفاجيء ـ كما وصف الحادث هو ، غير ان والده امتنع ، اول الامر ، عن اخذه الى المستشفى .. موجها له اصبع اتهام فظ ، بحجة ان الحادث لم يتسبب عن قوة خارجية ، وانما كان هو نفسه مسؤولا عنه .. غير ان قلبه لان اخيرا امام توسلات امه ، وبكائه العاجز ، واخذه الى المستشفى ، حيث كانت امه تجلب له بين فترة واخرى كتبا مصورة بالوان جميلة . الا انني الان فقط ادركت لم لم يحدثني عن حادثة سقوطه .. كانت تشكل جانبا من السجن الرهيب الذي كان يعيش داخل جدرانه دون وعي منه .. اما الجانب الاخر .. الجانب الاكثر ظلاما فقد كان ذلك العقاب المرعب الذي تلقاه اثر تحويله اوراقا مالية مهمة الى حبر ممزوج بالوان مائية .

كانت تلك ، اضافة الى بعض ملاحظاتي الشخصية ، مادتي الخام الوحيدة التي رحت ابحث بين اجزائها المبعثرة عن شخصية زميلي الجديدة .

لقد قضينا اكثر من خمس سنوات في غرفة رهيبة ، يتفجر فيها الضوء من نافذة رائعة .. وخلال السنوات الخمس ، قضى جزءا غير قصير من حياته مسمرا امام النافذة يلتهم بنهم لا يفتر كل ما كان يجول في الشارع .. وبالذات على الرصيف المقابل .. فهناك ، كان الناس يعيشون بحرية مطلقة لا تحدها حدود .. الباعة يصرخون .. يحملون احيانا نماذج من بضائعهم .. يلوحون بها في الهواء كجزء من عملية الدعاية لاجتذاب المارة ، الى جانب صراخهم الذي يكاد لا ينقطع .. باعة اليانصيب يبيعون الحظ لكل الناس دون تمييز وبدون مساومة .. ويؤكدون لكل عابر سبيل انه هو صاحب الحظ السعيد .. وان السحبة ستجري اليوم وان كان موعدها بعد اسبوعين او اربعة اسابيع . الناس يتجمهرون .. يساومون .. يدخلون في مناقشات حامية مع الباعة .. يتفقون او لا يتفقون .. يتخاصمون احيانا حين يكتشفون ان صفقة ما عقدت بصورة غير عادلة .. ثم يتصالحون او لا يتصالحون .. ويمضي كل الى سبيله .. كان كل شيء على الرصيف المقابل يجري بعفوية تامة ، دون تخطيط او تفكير مسبق .. ودون ان يشعر احد ان سيفا معلقا بشعرة يحلق فوق رأسه .. وعند غياب الشمس .. يحزمون ما بقي من بضائعهم .. يحملونها فوق عرباتهم .. او اكتافهم .. ويعودون الى بيوتهم حيث تنتظرهم حياة عائلية بسيطة جدا وبائسة جدا واعتيادية جدا .. لا يتخللها سفر متكرر .. ولا يكسر روتينيتها زنزانة ، فتح في اعلى جدار منها ،نافذة صغيرة اسدلت عليها ستارة زرقاء داكنة .. ولا يخدشها شيء اسمه خيزران .. كان يطيل المكوث والتامل عبر النافذة .. كان مقتنعا تماما ان وظيفته تلك تعني نصف عملية الخلق التي كان ينتظر حلولها كل لحظة ، ويعيش من اجلها .. مخططات ادبية متعددة كانت ترقد بين دفتي ذلك الدفتر الانيق المغلف بجلد الغزال .. غير ان تلك المخططات لم تخرج اطلاقا من بين تينك الغلافين .. بقيت خطوطا عريضة جدا .. وعناوين طويلة جدا ، قد تزيد طولا على المخططات نفسها .. وطيلة السنوات الخمس لم يستطع ان يسجل فقرة واحدة بشكل مترابط وذي معنى ، لتكون بدايه قصة قصيرة مثلا ، بل ولعله كان مقتنعا تماما بان تلك المخططات والعناوين الطويلةجدا، التي يوحي بعضها بانه مترجم عن اصول اجنبية ، يمكن اعتبارها تعويضا وافيا عن كتابة نصوص القصص نفسها ، لما كانت تنطوي عليه احيانا من تفاصيل جزئية . ولكنه هنا .. وبعد ايام قلائل فقط .. ووسط انهمار الضجيج ، وفي ما اصطلح عليه ـ زنزانة ـ استطاع ان يكشف عذاباته التي ظنها جديدة ، بشكل كانت معه بعض المقاطع تستوقف الذهن .. وتحمل وعدا قد يكون حقيقيا ، بانه قد يصبح كاتبا في يوم من الايام ..

كان هذا واحدا من الطلاسم الجديدة التي انتصبت في وجهي: لم لم يستطع ان يخط سطرا واحدا في ضوء الشمس وهو يقف وراء نافذته « العجيبة » يراقب بتركيز كلي ، الناس الذين « يحبهم »..يتسلل تحت جلودهم ويحس بما يحسون .. ويصوغ لهم نظريات جديدة عن الخير الذي سيكون .. بينما استطاع هنا ، في غرفة مغلقة ، بدون نافذة .. بدون ضوء ، وبدون اناس يتحركون ، ان يسكب كل عذاباته ،حتى تلك التي طمرتها السنون في اعماقه اللاواعية ؟ اهي العقدة التي تفك العقدة مثلما يفعل السحرة الذين يحمل بعضهم لقب « دكتور » لادري من اين جاء به !

هل كان حقا يعتقد اعتقادا حقيقيا وصادقا بان نصف الاديب يتكون اساسا من مراقبة الناس والعالم الخارجي ؟ الم يستطع الان ان يدرك ان تلك المراقبة قد فوتت عليه فرصا ربما كانت حقيقية ومليئة بالعطاء ؟ ام ان عقدة النافذة الصغيرة المعلقة في اعلى جدار تلك الغرفة المظلمة التي حولها ابوه مرة الى سجن مرعب، لا يفهم فراغه غير قطعتين من الخيزران وضعتا فوق بعضهما لتشكلا تلة متأرجحة كان من المحتمل ان يوضع فوقها السجين الصغير ، وربما كان سيؤمر بالوقوف عليها على ساق واحدة ، واوهام بافاعي وعقارب وسعلاة ورعب .. وحولتها امه الى مخزن يطل على ساحة ذات اسيجة عالية ، وعقدة السيرك الذي لم يره ابدا ، ثم تلك العقدة الرهيبة ـ الزنزانة ـ كانت اعظم من ان يستطيع الخلاص من تأثيرها ، حتى بعد مضي اكثر من عشرين عاما ، ليدرك ان الاديب، او حتى نصف اديب ، لا يمكن ان يولد وراء قضبان نافذة ؟ ولو اننا بقينا خمس سنوات او عشرا اخرى في ذلك المبنى ، هل كانت تلك النافذة الواسعة قادرة على ان تحل عقدة النافذة الصغيرة ،التي سماها ـ كوة ـ ؟ لقد ظل خمس سنوات يلتهم بعينيه كل نامة .. كل حدث ، حتى الاحداث التافهة .. كل صوت .. كل حركة .. ومع ذلك لم يستطع ان يسد تلك الثغرة العميقة التي حفرتها في عقله الباطن تلك النافذة الصغيرة .. حتى بات يعتقد بصدق كلي غريب .. ان كل ذلك الوقت لم يكن وقتا ضائعا .. وان ثماره لا بد ستاتي في يوم ما .. ولم يعجز من الانتظار الذي كنت اتخيل انه سيكون انتظارا ابديا ..

كان يعتقد ان الضوضاء هي السبب الحقيقي الوحيد الذي سيجمده عند مرحلة مشروع اديب .. اكانت الضوضاء حقا هي

السبب ، ام ان السبب الحقيقي هو ان تلك الضوضاء استطاعت ان تفقده حاضره .. ان تقتطع جزءا منه وتشده ابدا ما بين ماض بعيد مبهم وغير واضح المعالم .. ووجود قائم مرفوض ، وملفى في زمن مقبل منتظر ، مما افقده القدرة كليا على تحقيق ما كان يطمح اليه حاضرا ، وجمده عند نقطة انتظار ابدية .. لقد كانت تلك الضوضاء قادرة على ان تحيي اجزاء مهشمة محدودة من تلك التجربة الخانقة التي عاشها سجينا في غرفة مخزن .. ولم تستطع ان تبعث التجربة كلها كاملة في ذهنه لتحرره من اسارها .. كان يعتقد ان الضوضاء هي السواة الوحيدة التي تستثني نفسها من نظريته ـ الخير الذي هو في حالة صيرورة ـ ولم يكن قادرا على ان يدرك ان السبب وراء بقائها سواة ابدية ، انما هو لانها افلحت في ان تبعث جزءا غير واضح المعالم من تلك التجربة ، وان تجره بصورة جزئية وغير ناجحة الى ماض ميت غامض ، مما كان يزيده عذابا وتأزما وقلقا .. فيما كانت الصور الحية التي كان يتطلع اليها بشغف كلي ، عبر الحاضر القائم ، من وراء قضبان النافذة ، تخوض صراعا رهيبا مع ذلك الضجيج ، لتشده بقوة بالزمن الحاضر ، وتفقده القدرة على التركيز الباطني التام ، ليستحضر من اعماق الماضي الميت تلك التجربة كاملة ، والتي لم تنبعث الا بعد ان سدت بوجهه كل نوافذ الحاضر في الغرفة الجديدة . وبرغم تمزقه المنهك المستمر ، بين الماضي والحاضر ، فانه كان ينشد اكثر فاكثر الى النافذة ، بدافع لا شعوري ، ظنا منه انه كلما اطال المكوث عند النافذة والتطلع الى مصدر الصوت ، فانه قد يقترب من ذلك الشيء البعيد الغامض ، الكائن في خلفية الاصوات القادمة عبر النافذة ، والذي كان يثير في اعماقه احاسيس مبهمة ومخاوف لا سبب واضحا لها ، وتأزما نفسيا مقلقا بهدوء زائف ، وما كان يتصوره نزعة فضول ادبية .

كان يتصور انه قد نسي ساقه المكسورة تماما . ولكن .. الم يكن يريد في اعماقه ان يؤكد لنفسه بصورة لا شعورية انه يستطيع الوقوف عليها زمنا لا نهاية له ؟ ولكن .. هل استطاعت تلك الوقفات الطويلة ان تثأر لساقه من تلك النافذة العالية ؟ وهل استطاع حقا ان ينسى ساقه المكسورة العرجاء قليلا ؟

حتى حبه للادب بدا لي حبا غير حقيقي ينسجم تماما وزيف الشبح الذي كان قادرا على ان يثير اعجابي في يوم من الايام .. كان حبه ذاك نوعا من احساس غير واع للتعويض عن عقدة السيرك الذي لم يره ابدا ، فكان يجد في كتب الادب التي يقراها ، والتي كانت تضم ، كما اخبرني يوما ، جزءا لا يستهان به من كتب المغامرات والاسفار والاستكشافات ، تعويضا عما لم يكن قادرا على رؤيته رؤية عيانية فعلية ، وعن ذلك الحرمان الذي تأصل في نفسه منذ التاسعة من عمره . لقد وجد في الكتب التي بدأت علاقته معها منذ دخوله المستشفى ، مهربا حقيقيا يبعده عن الحركة او القيام باي عمل او نشاط قد يحطم ساقه الاخرى حتى وان كان يغوص في نوم عميق .. وحتى انه كان يتصور ان الكتب كانت تجد لها مواضع دافئة عند قدميه تحت غطائه .. دون ان يخطر بباله انه ربما كان هو الذي يمهد السبيل لذلك ، وذلك بان يرمي بها هنا وهناك في كل موضع ممكن ، دون ان يدرك انه انما يفعل ذلك ، لتكون مسانيد له ، تحافظ على ساقيه حتى بعد ان تصلب عودهما ، من الالتواء او التهشم .. ولتذكره دوما بوجودها ، لينشد اليها اكثر فاكثر مبتعدا عن العالم الحقيقي الذي يمور بالحياة وبالناس من كل صنف ولون ..

كان يتصور بانه يحب كل الناس .. وانه كان قادرا على ان يتسلل داخل جلودهم ويحس بما يحسون ، وهو قابع وراء نافذة .. ولكن .. ما مدى انطباق ذلك على مشاعره الحقيقية نحو الاخرين ؟ هل كان حقا يحب الناس ؟ ام ان ذلك التصور كان يمنحه ذريعة مشروعة ليعيش في جزيرة متوحدة ، مثل شجرته المتوحدة ، بعيدا عن الناس . انه يحبهم ، فاي شيء يريدون منه اكثر من ذلك ؟ انه يستطيع ان يحبهم من وراء نافذته .. اليس هذا يكاف في عالم ما زال نصفه شرا ؟ كان ذلك التصور يمنحه نوعا من حصانة واقية واكتفاء ذاتي ، فيما يخص عالم عواطفه .. كان شعوره ذاك ، في الحقيقة ، جزءا متمما للدور الذي لعبته الكتب في حياته ، فابعدته عن الدخول في علاقات اعتيادية مع الاخرين .. كان خوفا خفيا ومبهما من كل الناس ، لم يكن يعيه هو نفسه ، يسكن اعماقه بارتياح كلي .. فهو حتى حينما كان يقوم بعملية التسلل داخل جلودهم ، كان لا يدعهم يشعرون بذلك . وربما كان يحاكم المسالة لا شعوريا بالشكل التالي : اذا كان ابوه ـ ابوه هو ـ قادرا على منحه كل ذلك الالم ، اليس حريا بالاخرين ايضا ان يورثوه الما مضاعفة ؟ ربما كان يحس ببغض عميق وغير واضح تجاه كل الناس .. ولكنه كان يريد ان يغطي تلك الاحاسيس ، التي كان يعتبرها بعقله الواعي ، مشاعر لا انسانية جديرة بالاحتقار ، بنظرية جديدة عن الخير الذي هو في حالة صيرورة ، وبنظلمات ادبية تمنحه نوعا من ارتياح داخلي بانه قد يؤدي في يوم من الايام ، عن طريق انجازاته الادبية المقبلة ، رسالة نبوئية جديدة ، لاصلاح الجنس البشري ، وتحويل كل آثامه وشروره الى خير شامل .

حتى نشاطه السياسي وتركه الوطن فترة من الزمن كان ، بمعنى ما ، هربا من وجوده القائم انذاك ، وبحثا عن ذات جديدة ، عن حرية تقع خارج سيطرة ابيه ، الذي استطاع ، رغم موته ، ان يبقي يديه الفولاذيتين ممدتين ، بقوة مهيمنة الى داخله ، ليسيره بالشكل الذي يريد .. كان يحس احساسا غامضا ان الوطن قمين بان يبقي سيطرة ابيه حية الى الابد . المنفى هو المكان الوحيد الذي لا يستطيع ابوه الوصول اليه .. فلا شيء هناك يقترن بذكرى ابيه .. وليست هناك اعراف ولا تقاليد تشده في اسارها .. والحلبة السياسية كانت لحد ما ، خالية ، من ذكرى ابيه ـ سينفي نفسه .. وفي المنفى اكتشف ان ظلال ابيه لم تكن تسكن زوايا ودروب ومنعطفات وبيوت مدينته فقط ، وانما كانت تسكن ايضا في كل عرق ينبض في جسده .. وهناك في المنفى ، عرف نوعا جديدا من تمزق لم يكن يعرفه من قبل .. تمزقا بين منفاه الراهن بكل ما كان يحفل به من انطلاق وتحرر ، وبين وطن يعيش في داخله .. وحين عاد الى الوطن ، راح يبحث من جديد عن منفى جديد ، بعد ان احتوته مجددا قيود ظن انه سيحطمها فور عودته ، ليحل محلها ، ما اكتسبه من تجارب ومدارك جديدة .. ولكنه ما استطاع الخلاص منها .. ولا استطاع ان يحطمها .. لم يكن يدري أهو الذي عاد اليها .. ام انها هي التي تلقفته باحضانها .. كان يتمزق من جديد .. ومن جديد شرع يبحث عن منفى جديد .. وقد وجده في كتبه وتأملاته عبر النافذة ، ورحلاته الاندلسية ومواكب الهة سومرية وبابلية تتقبل النذور من شجرة متوحدة : كان ابدا وراء كل ما يستطيع ان يلفي حاضره وماضيه القريب الذي دفنت في طواياه ، كل معالم ذاته الاصلية ـ طفولته المرهفة بديكتاتور حقيقي . وفي امجاد الماضي ، البعيد جدا ، الذي لم يكن يشبه باي شكل ، ماضيه القريب ، كان يجد عزاءه وينسى عذاباته وهو سجين جلد ابيه ..

حتى الندم الذي زرعه ابوه في فكره كجزء من عملية صهر الانسان .. والذي كان « يتآكل كل ما كان داخل جلد التمساح » .. لم يكن ندما اصيلا مشروطا بزمانه .. وانما كان انبعاثا لذلك الندم الخفي المستديم الذي اراده ابوه ان يجعل منه وعاء يغلق اعماق ذاته ، عقابا له على اتلافه الاوراق الثمينة ، ومغامرته

القديمة التي حطمت احدى ساقيه ، وهشمت جزءا صغيرا لا يؤبه به من عظم الساق ، فخلفت وراءها ، والى الابد ، عرجا خفيفا لا يلحظه الا من يراقبه عن كثب . وعادت الى ذهني عبارته :« كل الوخزات التي كانت ترتطم على غلافي الخارجي ، كنت اتيح لها أن تنتقم مني خلسة » . ولكن .. لم خلسة .. هل كان صادقا في قوله هذا ،ام انه كان يحاول الاحتيال على نفسه فيحمل الاخرين ، بشكل لا شعوري طبعا ، مهمة الانتقام منه ، تكفيرا عما ارتكبه حين احال الاوراق المالية المهمة الى حبر ممزوج بالوان مائية ، يصلح ان يكون لوحة جديرة بان تحتل لها مكانا في صدر البيت !؟ وعن الساق التي تهشم عظمها الى الابد !؟

حقا ان غرفتنا الجديدة كانت صغيرة ، وكانت توحي بانه كان من الافضل ان تكون غرفة مخزن لا مكتب .. ولكنها لم تكن ، كما بدت له ، زنزانة .. ولا قوقعة تمساح سميكة لا يمكن ان يخترقها اي شيء .. انه الشعور الذي تولد في اعماقه حين دفع به ابوه الى غرفة المخزن الصغيرة لتكون سجنه الاول والابدي .. كان زميلي يعتقد ان عملية صنع نصف اديب هي الدافع الحقيقي وراء وقفاته الطويلة المملة وراء قضبان النافذة العريضة في المكتب القديم .. ولم يكن يتصور ابدا ان الدافع الحقيقي هو الهرب الدائم من تلك الزنزانة المظلمة التي كانت تعيش داخله ويعيش داخلها ، والتي خلعت على البيت كله طابعها هي ، فجعلت منه منفى ابديا يتعمق الاحساس به بشكل اكبر في نهاية الاسبوع . ولم يكن يتصور ابدا ان وقفاته تلك ، كانت نهما متعطشا ـ ولكن سلبيا وعاجزا ـ الى الحياة التي كانت تجري كنهر صخاب يخترق ممرا صخريا ، فيما كانت تلك اليدان الفولاذيتان الشبحيتان ، تشدان راسه بقوة ضارية بين اغلفة كتب ، « كتبت مسودات بعضها قبل مئات من السنين » ، وتخلق له عالمه الموهوم ، واصدقاءه الذين ربما مات بعضهم ايضا ،قبل مئات من السنين .. انني اكاد اكون موقنة الان ان زنزانته الخفية ، وعقدة السيرك ، كانتا وراء تلك الحالة الانفعالية التي كانت تفيض على وجهه بشكل لم اعهده من قبل حين سمع بوجود ساحة واسعة وسوق شعبية وراء المبنى الجديد .. لقد حسب انه سيستطيع اخيرا ان يحطم جدار زنزانته ويطفيء حرقة السيرك الذي لم يره ابدا ولم ينسه ابدا ، وذلك بالتعويض عنه بالسوق الشعبية التي سيغرف منها بلا حساب ، نماذجه الادبية ، عبر نافذة واسعة ، ظن ان المهندس المعماري الذي صمم المبنى الجديد ، لا بد أن يكون قد فكر بها .

ان ما فعله باقناعه مدير الادارة بالانتقال الى مبنى اخر ، لم يكن باي حال جريمة .. ولم يكن جديرا بكل مشاعر الاثم والخطيئة والتعذيب الذاتي ، بعد ان اكتشف خطأ توقعاته التي كان يامل معها انه سيكسب هدوءا ، ظن أن غيابه ، كان السبب الحقيقي في تجميده عند مرحلة مشروع اديب ـ غير ان مشاعره تلك ، لم تكن حقيقية كما كان يتصور .. انها مرة اخرى ثمار البذور التي زرعها ذلك الديكتاتور الحقيقي الذي رحل منذ زمن ليس بقصير .. والذي كان يصر على ان الاقرار بالخطأ جزء من عملية سقي الانسان .

ولكن هل أصبح ابنه اقوى .. هل صهرته تلك المعاملة الغظة وجعلت منه رجلا حقيقيا ؟

كان السجن الذي اقامه ابوه حوله اقوى من اي شيء .. اقوى من كتبه .. اقوى من النافذة الكبيرة .. أقوى من ضوء الشمس ..اقوى من هربه المستديم .. بل وحتى اقوى من ابسط حق يمكن ان يمارسه انسان ، دون ان يطلب تفويضا بذلك من أحد .. كان زميلي عاجزا عن كل شيء .. حتى عن الحب .

بعد ستة شهور تقريبا من لقائنا في تلك الغرفة الوضيئة .. بدات احس بميل نحوه .. كنت آتي للعمل مبكرة .. واترك المكتب في الدقيقة الاخيرة من انتهاء الدوام الرسمي ، كي اوفر بضع دقائق اضافية اقضيها معه .. كان ضوء مليء بفرح صامت يغمرني خلال تلك الدقائق الاضافية .. وكان يبدو لي انه كان يبادلني نفس الشعور .. كان هو الاخر يحرص على المجيء مبكرا .. ولا يترك المكتب الا بعد ان اتركه انا .. واحيانا كنا نغادر المكتب معا .. كان يستطيع ان يخفي الكثير من مشاعره .. الا ذلك الشعور الذي كان ينعكس في بهجة ساطعة تشع دون ارادته من عينيه ، وهو يحدثني عن قراءاته او مشاريعه الادبية ..

ومع مرور كل يوم ، كنت احس اننا كنا نقترب اكثر فاكثر من بعضنا .. وفي يوم من الايام ، جاءني بزهرة غريبة رائعة العطر ..زهرة ماغنوليا نقية البياض .. قال وهو يقدمها لي :

ـ هذه اول زهرة ماغنوليا اقطفها من الشجرة .. انها نادرة .. اقصد الشجرة .. انني احبها الى حد لا اجرؤ على ان امسها بطرف سبابتي .

ـ لم قطفتها اذن ؟ ألن تندم على ذلك ؟

ـ أبدا .. بل أنا سعيد .. ربما سنزرع نحن الاثنين شجرة ماغنوليا جديدة في حديقة ظليلة ..

وراح يغوص بعيني بصمت بان من خلله ، مسحة من الم غامض دفين .. خلت ان دهرا قد مضى قبل ان تفترق عيوننا من جديد .. كنت اظن اننا كنا نسير معا في درب طويل تظلله اشجار ماغنوليا ساحقة .. ولكن في اليوم اللاحق .. وقبل ان تنفض زهرة الماغنوليا وريقاتها البيضاء .. احسست انني كنت اسير بمفردي في درب لا تنبت فيه زهرة .. فجاة انطفأ ذلك البريق الذي كان يملأ عينيه .. نسي زهرة الماغنوليا ... نسي شجرة الماغنوليا النادره التي كنا سنزرعها نحن الاثنين في حديقة ظليلة .. ونسي انه في اليوم الفائت فقط .. كان سعيدا معي .. وعاد من جديد الى سلوكه الجدي المرهق ... متحاشيا النظر الي .. ومع البريق الذي انطفأ في عينيه ، خبت في اعماقي انا ايضا ، قبل ان تتحول الى لهب ، ومضات كانت ما تزال طفلة .. وعدنا كما كنا .. مجرد زملاء .

في البدء .. خيل لي انه كان من صنف اخر من المثقفين ..صنف يندر العثور عليه .. ظننت انه سيكون واحة في صحراتي القاحلة .. كان « المثقفون » الذين قدر لي ان اتواجد في محيطهم ، بحكم اهتماماتي الادبية ، يمنحونني كل يوم، شعورا متزايدا ان امراة مثقفة، لا مكان لها في مجتمع شرقي .. فهم اول الامر ، يدورون حولها مندهشين مثل ذباب جائع يحوم حول قطعة من السكر ..

ولكن .. ما ان يكتشف ان السكر مصفى اكثر مما يجب ، مما يمنحه مذاقا فيه شيء من المرارة ،حتى يبتعد متحسرا ، بحثا عن سكر من النوع الاخر .. النوع الذي تمنحه أعنيادية درجة معينة من حلاوة تتلاءم وتطلعات الذباب . كنت احس برثاء حقيقي لاولئك « المثقفين » الذين ظلت درجاتهم الاكاديمية مجرد جزء شديد البروز من ديكور خارجي .. اما هو فقد ظننته من صنف اخر .. صنف يستطيع ان يقدر مرارة السكر ... الا انه الان بدأ لي كمن تسقط عن وجهه، ريح عاتية ، قناعا شد باتقان ..

لم يثر سلوكه استغرابي ابدا .. برغم انه لم يكن ينسجم ابدا ومستواه الفكري ، وثقافته المتعددة الجوانب.. ولا مع جديته وشعوره العالي بالمسؤولية .. كما انه لم يكن ليتلاءم وما كان يعلنه في كل مناسبة : « من الصعب ان نجتاز المرتبة الثالثة ،ان بقيت المراة على ما هي عليه » . وبالطبع ، كان يقصد بالمرتبة الثالثة ، العالم الثالث ..

لم يكن غريبا بالنسبة لي ان يدوس مثقف شرقي زهرة تتفتح .. كنت اعرف عقدة المثقف الشرقي .. انها ابدا تلك الازدواجية التي تسكن راسه بصورة طبيعية جدا .. فهو نظريا ، وفي حياته العامة ،انسان متحضر جدا .. يحترم المراة المثقفة (وغير المثقفة طبعا) جدا .. ويحترم عواطفها وانسانيتها . ويتباهى بانه يفعل ذلك .. بل ويطالبها بان تمارس كل حقوقها ـ بما في ذلك حق ان تحب ـ ويتهمها بالجبن والرياء ان لم تفعل .. ولكنه ما ان يشعر بانها احبته

بصدق ، حتى تنتهي حدود الحضارة ، لتبدأ حدود صحرائه اللانهائية .. ويعود بشموخ لخيمة القبيلة .. وتنتفض الحياة من جديد في كل تعاليم وتقاليد جداتنا العزيزات .. وتبدا نظرته تتجه من اعلى الى اسفل نحو المرأة التي مارست حقها فاحبت ، وهو يدير رأسه بحثا عن امرأة تحترم نفسها .. تحب من وراء حجاب .. وتمنحه سعادة ان يمسك بعظمة كلية ، صولجان تاجر رقيق .. مع ايحاء ذكي بانه مركز العالم .. انه بلا شك ليس بحاجة الى امرأة مثقفة تستطيع ان تدرك مقاييسه الحقيقية وتضعه في موضع بعيد عن مرتبة انصاف الالهة .. قريب جدا من مواقع انسانية .. وتقف امامه كشريك مساو له حتى في الثقافة والفكر .. وهذا جحيم المثقف الشرقي ، الذي يظن ان من حقه ان يكون متفوقا على المرأة في كل شيء ، وخاصة في مجال الفكر والثقافة .. فهما حكر له منذ الازل ، والمرأة لم تخلق لهما .. ولا يحق لها ان تحصل منهما الا على ذلك القدر الذي يؤمن له شرعية ذلك الشعور الفارغ بالتفوق ..

حين انطفأ ذلك البريق في عينيه ، ظننت انه هو ايضا كان من ذلك الصنف الشائع من المثقفين .. حسبت انه لم يكن يملك ان يختار جحيمه الموهوم برضى .. فآثر الابتعاد ، بحثا عن فردوس يشعر فيه انه مركز العالم .

شعرت نحوه برثاء يشوبه احتقار حقيقي .. فانا لم اكن املك القدرة على احترام انسان مثقف ينزوي في ركن مظلم من رأسه ، عملاق بدوي مهيمن .. غير انني ، مع مرور الايام ، نسيت احتقاري ورثائي ـ كما نسيت عملاقه البدوي .. الا انني الان فقط ، بدأت ادرك انه ربما لم يكن كما ظننت . كان في وضع اشد بؤسا .. فهو لم يكن قادرا على ان يعيش خارج الزنزانة الابوية .. او خارج حدود السنوات الاولى من حياته .. السنوات الحقيقية الوحيدة التي عاشها بصدق .. داخل ذاته الحقيقية، وليس داخل اغلفة كتب.. وجلد تمساح..او وراء قضبان نافذة كبيرة .. يلتهم عبرها بأسى خفي ، الحياة التي تنطلق بلا قيود في الشارع ، فيظنها ، كلما سقطت عليها عيناه ، انه يراها للمرة الاولى .. والتي لم يكن قادرا على ان يعيش مثلها هو .. فالجلد الذي كان يرتديه ، كان أقوى واضيق من ان يتيح له اي قدر من الحركة بحرية .

لقد نسي تلك الحادثة المروعة حيث كانت الثعابين والسعالي تنفلت في ظلمة الزنزانة ،من ذهنه المحموم ، بلا قيود .. وحين افاق من غيبوبته ، لم يكن يدرك انها قد اتخذت لها مسارا كان يجري في خط مواز للجانب الواعي من حياته .. كل خطوة كان يخطوها بوعي، كانت ظلا لتلك الحادثة التي كانت تتضخم تضخما غير طبيعي ،وما بعد يوم ، دون ان يشعر بذلك .. اذ ان ذلك التضخم كان يجد له منفذا يتسرب من خلاله عبر تصرفاته اليومية الواعية .. وما وضع الكرسي والمنضدة الخيزرانيين فوق بعضهما البعض ، مرة في غرفة المخزن حين كان في التاسعة ، ثم في غرفتنا الجديدة ، الا ظلال لذلك الجانب الخفي . فهما لم يكونا سوى الكرسي والمنضدة الاولين اللذين اريد لهما ان يكونا وسيلة تعذيب همجي ، الا ان ذلك لم يتحقق، فقط في اللحظة الاخيرة، ولكن حين صار في التاسعة، نفذ، هو نفسه، ما امتنع ابوه عنه ، حيث اصيب بعرج خفيف ابدي .. ومرة اخرى برز الخيزران في حياته من جديد .. كانت زنزانته الاولى تريد ان تلقي ظلالها عليه في ما اعتقد انه زنزانته الجديدة .. الا انه انفلت اخيرا من اسارها .. ووعى ذاته الحقيقية ..

مع ذلك الشيء الذي انسل في ذهنه كومضة سيف ، ومع تآلفه مع الغرفة الجديدة ، وجد نفسه في مفترق طرق جديد .. لم يكن قادرا على ان يدرك ما الذي حصل تماما .. كان يخشى ان يكون تآلفه الذي تصوره غريبا وغير طبيعي ، نهاية لطموحاته واهتماماته الادبية . ولم يكن يستطيع ان يتصور ان الوضع الناشيء الجديد ، انما هو بداية معايشة فعلية ، داخل الواقع الذي يعيش ضمنه ، والذي ظل يتهرب منه على مدى اكثر من عشرين عاما .. لم تكن بداية المرحلة الجديدة واضحة له تماما .. كانت ما تزال مشوشة المعالم ، اذ انه لم يكن قد تخلص كلية ، من سيطرة الماضي عليه .. كان ما يزال يتأرجح بين ماض غير مشروع ، اخذ يتراجع الى حيث ينبغي أن يكون، وبين حاضر يريد ان يؤكد شرعية حقه في الامتداد بين ماض ينبغي ان لا يظل قائما الا بافضل ما فيه ، وبين مستقبل يجب ان يأتي .. وعبر ذلك التذبذب بين قوتي جذب ، لم يكن يستطيع بعد ، ان يقدر ان الحضور المفاجيء الذي استلبه من بطون ماض آثم ، لم يكن وهما، وان الحقيقة التي ظن انه عاشها ، كانت مجرد وهم طويل .. وكانت رغبته في ان ادينه ، اول بادرة ايجابية ، حاول ان يمارس من خلالها ، ذلك الحضور الجديد .. لقد عاش طيلة حياته خاضعا لتأثيرات وتعاليم ابيه .. كان يبادر دوما الى الاعتراف بأي خطأ قد يرتكبه .. ولكنه الان وللمرة الاولى ، لم يكن يريد ان يوجه اليه اصبع اتهام ، وانما كان يريد ان يدان .. لقد خرج من جلد ابيه اخيرا .. ولم يكتف بتحريره فقط ، وانما كان يريد ايضا ان يتحدى تعاليم ابيه المقدسة .

كنت اتلهف لرؤية زميلي .. لم تكن لهفتي اليه منبعثة من يقظة مشاعر ماتت في صدري منذ سنوات عديدة .. ولا بدافع شفقة عليه .. وانما من رغبتي في رؤية الانسان الجديد الذي اكتشفته لتوي ، بعد اكثر من خمس سنوات .. الانسان الذي كنت امل ان يكون قد شفي حقا من عقدته المثقفة ، بعد ان سكبها على الورق .. وعاد الى ذاته الحقيقية .. الى انسانيته الحقيقية التي تخلى عنها منذ تلك الحادثة ، وان كان يظن انه قد فقدها بعد انتقالنا الى المبنى الجديد بسبب الالام التي اورثها للاخرين .. كنت اترقب الزمن لحظة لحظة ، كما لو كنت مقبلة على كشف علمي جديد .. اسيرضى عن ذاته الجديدة التي انار تآلفها « غير الطبيعي » مع الغرفة ـ الزنزانة ، استغرابه ، والتي تصور انها ربما كانت مرحلة جديدة من حياة تتسم بالصوفية والقدرة على التجلي الى عوالم بعيدة ... ايستطيع ان يتصور ان تلك العوالم البعيدة انما هي طفولته بالذات التي كانت تمتلك صوفيتها الخاصة ، والتي كانت بالتأكيد عالما بعيدا ، وهو يعود اليه الان .. الى النقطة التي توقف عندها ، بعد كل سنوات الهروب المتواصل الطويلة ، ليبدأ من جديد ، وان كان يظن انه قد اصبح الان اكبر .. أسيكون بمقدوره ان يعيش على وفاق مع ذاته الحقيقية التي انتفضت اخيرا من تحت ركام عشرين عاما او تزيد ، قضاها يبحث عن وسيلة للخلاص من قبضة ابيه الذي اورثه زنزانة مظلمة خفية ، ونافذة صغيرة عالية ، وسيركا لم يره ابدا .. واوراقا مالية استحالت الى صور مائية رديئة .. وجلدا ظنه جلد تمساح .. واخيرا .. ساقا فيها عرج خفيف ! وبعد هذا كله .. هل سيصبح اديبا لو تحرر من كل هذه العقد ؟

كنت انتظر مجيء صباح ثان مثلما كنت انتظر يوم اعلان نتائج الامتحانات وانا طالبة في المدرسة ..

حين انفتح باب مكتبنا في اليوم اللاحق .. وجدتني دون ارادتي اقيس بعيني درجة الانحراف في مشيته .. لم تكن كبيرة كما كان يتصور ..

خيل لي ان مسحة من هدوء وديع لم اعهده من قبل ، كانت تطوف على وجهه .. ضغطت زر الجرس الكهربائي وانا اتساءل :

ـ اتحب ان تشرب شيئا ؟

ـ كان ينبغي ان اقوم انا بتوجيه الدعوة .. اتشربين شيئا ؟

ـ قهوة رجاء ..

وبتردد خجول .. وبعد صمت قصير .

ـ ما رأيك بمشروع قصصي ؟

ـ اظن انه كان يجب ان ننتقل الى هذا المبنى منذ خمس سنوات ...

وانفجرت في غرفتنا الصغيرة ، ضحكة اذابت كل الثلوج ..

بغداد